

محمَّد الغزالي

السنة النبوية

بين أهل الفقه.. وأهل الحديث

دار الشروق

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٦
مقدمة الطبعة السادسة	٧
مقدمة الكتاب	١١
نماذج للرأى .. والرواية	١٧
فى عالم النساء	٤٣
معركة الحجاب !!	٤٤
المرأة والأسرة والوظائف العامة	٥٢
حول شهادة المرأة	٦٦
الفناء	٧١
الدين بين العادات والعبادات	١٠١
آداب الطعام	١٠٢
آداب الملبس	١٠٥
آداب المساكن	١٠٦
كتاب البيان	١٠٨
المس الشيطاني حقيقته وعلاجه	١١١
فقه الكتاب أولاً	١٢٥
أحاديث الفتن	١٤٧
وسائل وغايات	١٥٩
القدر والجبر	١٦٩
خاتمة	١٨٩

تمهيد

بينى وبين معهد الفكر الإسلامى بالولايات المتحدة صلة حميمة ، وكثيرا ما أشارك فى ملتقيات وبحوثه ، والمعهد يقوم برسالة حضارية جلية . فهو يصل ما انقطع من تيار الفكر الإسلامى بعد تنقية المنبع وضبط المسار ، وهو ينظر إلى المعرفة الإنسانية المعاصرة نظرة إنصاف ، فما كان منها نتاج فطرة سليمة قبله . لأن الإسلام دين الفطرة ! ويستحيل أن يتنكر لصفته الأولى ، وما كان وليد هوى وحجاج رفضه ولاكرامة ! فليس لجديد وزن إذا خالف العقل والنقل ...

وقد كلفتنى أسرة المعهد أن أضع كتابا أنصف به السنة النبوية ، وأذود عنها جراءة القاصرين وذوى العقول الكليلة ! والحق أنى رحبت بهذا التكليف بل لعله وافق رغبة فى نفسى . ومن ثم سارعت إلى التنفيذ ...

ومع عمق الصداقة التى تشدنى إلى الدكتور عبد الحميد أبى سليمان والدكتور طه جابر العلوانى^(*) والقراءة العقلية التى تجمعنا ، فقد رأيت أن أتحمّل وحدى مسئولية الأحكام التى قررتها ، وأن أواجه ماقد يثور من اعتراضات ... !

لذلك أعطيت دار الشروق الطبعة الأولى من هذا الكتاب . راجيا أن أحمى ديننا الحنيف من الأصدقاء الجهلة ، وأن يستبين الناس سعة الرحمة التى بعث الله بها صاحب الرسالة الخاتمة ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

محمد الغزالي

(*) رؤساء المعهد .

مقدمة الطبعة السادسة

فوجئت بصدور خمس طبعات في خمسة شهور من هذا الكتاب ! مما دلّ على ظمأ القارئ المسلم إلى العلم النافع والدراسة التزهية ..
واتفقت مع الناشر على أن تصدر الطبعة الجديدة وبها زيادات ذات بال ،
انتفعت فيها من تصويبات أهل الذكر الذين حاورتهم أو كتبوا إليّ أو سمعت
صوتهم من بعد ..

وقد شتمني بعض الناس فوجدت الإعراض أولى ! ومَنْ من الأنبياء لم
يُشتم ؟ فليَناسُ أتباعهم بهم في الصبر والتجاوز ... !

قالوا : الإله ذو ولدٍ ! قالوا الرسول قد كهنا !
ما نجا الله والرسول معا من لسان الورى ، فكيف أنا ؟
لكن الشتم الذى أوجعنى اتهام البعض لى : بأنى أخاصم السنة النبوية !! .
وأنا أعلن أن الله ورسوله أحبّ إليّ مما سواهما ، وأن إخلاصى للإسلام
يتجدّد ولا يتبدّد ، وأنه أولى بأولئك المتحدّثين أن يلزموا الفقه والأدب ..

فغايى تنقية السنة مما قد يشوبها ! وغايى كذلك حماية الثقافة الإسلامية من
ناس قيل فيهم : إنهم يطلبون العلم يوم السبت ، ويُدرّسونه يوم الأحد ،
ويعملون أساتذة له يوم الاثنين . أما يوم الثلاثاء فيطاولون الأئمة الكبار
ويقولون : نحن رجال وهم رجال !! .

وهكذا بين عشية وضحاها يقع زمام المسلمين الثقافى بين أدعياء ينظر إليهم
أولو الألباب باستنكار ودهشة .

وإذا كان هؤلاء لم يُرزقوا شيوفا يربونهم ، أو أساتذة يثقفونهم فسوف تربيتهم الأيام والليالي وما أحفلها بالعجائب .. !! .

وقد رأيت أن أدخل الإضافات الجديدة في مادة الكتاب نفسه ، مشيراً في الهامش إلى أنها ردود على شبهات ، أو إجابة على تساؤلات .

وأؤكد أنني مع جمهرة الفقهاء والمتحدثين عن الإسلام ، ولست صاحب مذهب شاذ ، بل إنني من صميم الجماعة ومن حماة أهدافها ، وأولو العلم يعرفون ما أعنى .

والخطورة نجىء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين يعلو الآن نقيقهم في الليل المخيم على العالم الإسلامي ، ويعتمد أعداء الإسلام - في أوروبا وأمريكا - على ضحالة فكرهم في إخماد صحوة جديدة لديننا المكافح المشخن بالجراح ... إن الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا ، بيد أنها ستبقى حاكمة مادام لا يوجد بديل أفضل ! .

هل البديل الأفضل جلابيب قصير ولحية كثة ؟ أم عقل أذكى وقلب أنقى ، وخلق أذكى وفطرة أسلم وسيرة أحكم ؟ .

لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية فجعلوا الفروع الحقيقية جذوعاً أو جذوراً ، وجعلوا الأصول المهمة أوراقاً تتساقط مع الرياح ! .

وشرف الإسلام أنه يبنى النفس على قاعدة « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وأنه يربط الاستخلاف في الأرض بمبدأ « الذين إن مكثاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

وأنا أتوجه إلى أمراء الجماعات الدينية الأكارم ، وإلى الأوصياء الكبار على تراث السلف أن يراجعوا أنفسهم كي يهتموا بأمرين :

أولهما : زيادة التدبر لآيات القرآن الكريم .

وآخرهما : توثيق الروابط بين الأحاديث الشريفة ودلالات القرآن القريبة والبعيدة ، فلن تقوم دراسة إسلامية مكتملة ومجدية إلا بالأمرين معا ..

إن الصلف مع العلم رذيلة ، فكيف إذا كان الصلف مع عجز وقصور؟؟ وهذا الكتاب حصيلة تجارب كثيرة في ميدان الدعوة أردت به ترشيد الصحوة ، وشدة أزر العاملين المخلصين .

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

محمد الغزالي

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

قلبي مع شباب الصحوة الإسلامية الذين عملوا الكثير للإسلام ، وينتظر منهم أن يعملوا الأكثر..

إنهم اشتبكوا مع الروس في أفغانستان فطلعوا عليهم بالردى ، واضطروهم إلى الفرار ، ولا يزالون مشتبكين مع فلول المرتدين والخنوة ، والمركة لا يؤذن ليلها بصبح قريب ، والمعاناة مستمرة .

وقد اشتبكوا من قبل مع الفرنسيين في الجزائر ، وكانت تضحياتهم سيلا موارا بالدماء والأشلاء ، حتى تأذن الله بالفرج ، وانكسرت القيود ، وعادت صيحات التكبير تنبعث من المساجد التي غلقت ، ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها . أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » .^(١)

وعندما كانت معركة فلسطين إسلامية القيادة والوجهة تضاعفت خسائر اليهود ، واصطدمت أمانيتهم بأسوار من حديد . ولو ظلت المعركة على طبيعتها فترة أخرى لولّى اليهود الأدبار ، ورجعوا من حيث جاءوا إلى شرق أوروبا أو غربها .

لكن المؤامرات العالمية سحبت الإسلام من المعركة وجعلت العرب يقاتلون بلا دين فقامت إسرائيل ، ونفخ أوداجها الغرور !

(١) البقرة : ١١٤ .

ثم عاد الإسلام كرة أخرى إلى الساحة فإذا انتفاضة جديدة تشعل نار المقاومة ، وتذكر العدو والصدیق بأن الإسلام وحده هو النجاة !

إن قلبي ولبي مع الصحوة الإسلامية التي تحاك لها المؤامرات العالمية ، ويتعرض أبطالها إلى ظلم بعد ظلم وألم بعد ألم ...

أريد أن أقول للشباب المكافح : إن تحرير الأرض من محتليها الأجانب هدف عظيم إلا أنه بعض ما نعمل له !

إن السیخ فی القارة الهندية يسعون لإقامة دولة للسیخ !

فما دولة السیخ ؟ وما وزنها الإنسانی فی الأولین والآخرین ؟ لا شيء .

إن دولة للعرب قد تقوم هنا أو هناك بعيدة عن الدين ، فما قيمة ذلك وأثره ؟ إننا طلائع الإسلام الذي يريد إعلاء الوحي الإلهي ، وإنصاف الفطرة الإنسانية ، وترشيد الحضارة كي ترتبط بربها وتسیر علی هداه ...

إن تراثنا الذي قاد العالم دهرا يجب أن ينهض من كبوته ، ويستأنف رسالته ، ويغسل الأرض من أدرانها .

لذلك أنظر باهتمام شديد إلى الجو الفكري الذي يسود ميدان الصحوة ، وأتابع بقلق مدّه وجزره وخيره وشره ، وخطأه وصوابه ! معتقدا أنه بقدر ما يقترب من الحق تسانده بركات السماء وخيرات الأرض ...

وقد تدارست مع أولى الألباب هذا الجو الفكري السائد . واتفقت كلمتنا على ضرورة التعامل معه برفق ، واقتياده إلى الطريق المستقيم بأناة ..

لاحظنا أن الحقائق الرئيسية في المنهاج الإسلامي لا تحتل المساحة العقلية المقررة لها ، وهذه الحقائق افتقدنا الكثير منها في مسيرتنا التاريخية لاسيما في القرون الأخيرة ! .

فلو كانت أنظمة الحكم أهدي ، وعناصر الحرية والعدالة أقوى ، ما كنا نسقط

في برائن الاستعمار الذي اجتاحتنا وكاد يمحو وجودنا ورسالتنا .

ما قيمة نهضة لا تعرف أسباب هزائمها السابقة ؟ .

إن السلطات المستبدة قديما وحديثا تسرها الخلافات العلمية التي لا تمسّها !
هل الشك ينقض الوضوء أم لا ؟ هل رؤية الله في الآخرة ممكنة أم ممنوعة ؟ هل
قراءة الإمام تكفي عن المصلين أم لا تكفي ؟ .

إن حكام الجور يتمنون لو غرق الجمهور في هذه القضايا فلم يخرج ! لكنه
يشعر بضر بالغ عندما يقال : هل الدولة لخدمة فرد أم مبدأ ؟ لماذا يكون المال
دولة بين بعض الناس ؟ هل يعيش الناس - كما ولدوا - أحرارا أم تستعبدهم
سياط الفراعنة حيناً ولقمة الخبز حيناً ؟ .

إن البدوي الذي خاطب الفرس أيام الفتح الأول قال لهم : جئنا لنخرج
الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد ..

كان هذا البدوي بفطرته الصادقة يعلم ما هي الحقائق الكبرى في المنهاج
الإسلامي فيفتح البصائر عليها ..

وقد أوجع فؤادي أن بعض الشباب كان يهتم بهذه المسألة : هل لمس المرأة
ينقض الوضوء أم لا ؟ .

وكان اهتمامه أحداً وأشدّ من إجراء انتخابات حرة أو مزورة !!

إن عدم سيطرة الحقائق الكبيرة على الوعي الإنساني لا يمكن التغاضي عنه ..

وشيء آخر نريد الحديث عنه ! ماهو المنطق الذي عوملت به القضايا
الثانوية بعدما استحوذت على الأفكار ... ؟ .

لقد شاعت الأقوال الضعيفة والمذاهب العسرة ، ورجحت الآراء التي
كانت مرجوحة أيام الازدهار الثقافي الأول ، حتى وهل الناس أن الإسلام إذا
حكم عاد إلى الدنيا التزمت والجمود ! .

قال لى أحد الناس : ماذا كنت تفعل فى « أسبوط » عندما تفاجأ بفرقة من المغنين تريد « إحياء » « ليلة خليعة » ؟ .

قلت : سأذهب إلى قائد الفرقة وأقول له : نحن نريد سماع كلمات وألحان معينة فهل تلبون رغباتنا ؟ فإذا قال : ماتريدون ؟ طلبت منه أغنية :
« أخى جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق القدا .. !! »

أو أغنية : ياظالم لك يوم .. !!

أما أن تغنى لنا « ليل خمر ... » فسوف نغلق فمك أو نحشوه بالتراب !
إن إخواننا يقتلون فى ميادين كثيرة ولا نرحب بالسكر والنشوة ومصارع المجاهدين تتنامى حولنا ..

إننا نكره الفنون الرقيقة ونطارذ الماجنين الذين يشيعون بين الناس الخنثة والضعف ... !! .

ماذا لو شرحنا موقف الإسلام بهذا الأسلوب ؟ .

إن ممثلين يعيشون فى الأوحال صنعوا لأنفسهم بطولة على أساس أن الإسلام يحارب الفن !! .

نحن الذين مكنا المهازيل من الدعوى العريضة ، وهم بفنونهم الرخيصة لا يساوون شيئاً ...

وزاد الطين بلة أن قيل للشباب الساذج : نحن لا نريد أقوال الرجال ولا مذاهب الأئمة . نريد الاعتراف مباشرة من الكتاب والسنة ..

وأنا أكره التعصب المذهبي وأراه قصور فقه ، وقد يكون سوء خلق ..
لكن التقليد المذهبي أقل ضرراً من الاجتهاد الصياني فى فهم الأدلة ..
وبديهي أن تنشأ مشكلات ثقافية واجتماعية من هذا النهج ، وأن تسمع

حَدَّثاً يقول : مالك لا يعرف حديث الاستفتاح ، ولا سنة الاستعاذة ولا يدرك خطورة البسمة ، وهو يخرج من الصلاة دون أن يتم التسليمتين ، فهو جاهل بالسنة النبوية .. !!

وَحَدَّثاً آخر يقول : أبو حنيفة لا يرفع يديه قبل الركوع ولا بعده ويوصي أتباعه ألا يقرؤوا حرفاً من القرآن وراء الإمام ، وربما صلى بعد لمس المرأة . فهو يصلي بلا وضوء

إنه هو الآخر جاهل بالإسلام .. !!

وينظر المسلمون إلى مسالك هؤلاء الفتن فينكرونها ويلعنونها ..

وقد كان علماء الأزهر القدامى أقدر الناس على علاج هذه الفتن ، فهم يدرسون الإسلام دراسة تستوعب فكر السلف والخلف والأئمة الأربعة كما يدرسون ألوان التفسير والحديث وما تتضمن من أقوال وآراء .

لكن الأزهر من ثلاثين عاماً أو تزيد ينحدر من الناحية العلمية والتوجيهية ولذلك خلا الطريق لكل ناعق . وشرع أنصاف وأعشار المتعلمين يتصدرون القافلة ويشيرون الفتن بدل إطفائها

وانتشر الفقه البدوي . والتصور الطفولي للعقائد والشرائع .

وقد حاولت في كتابي « دستور الوحدة الثقافية » أن أقف هذا الانحدار ، بيد أن الأمر يحتاج إلى جهود متضافرة وسياسة علمية محكمة .

وفي هذا الكتاب جرعة قد تكون مرة للفتيان الذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية ثم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علماً بعد قراءة عابرة أو عميقة . ولعل فيه درساً لشيوخ يحاربون الفقه المذهبي لحساب سلفية مزعومة عرفت من الإسلام قشوره ونسيت جذوره ؟

وأؤكد أولاً وآخرأ أنني مع القافلة الكبرى للإسلام . هذه القافلة التي يحدوها

الخلفاء الراشدون والأئمة المتبوعون والعلماء الموثقون ، خلفا بعد سلف ، ولاحقا يدعو لسابق .. يدعو الله بصدق قائلا : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » (٢) .

محمد الغزالي

مَسَازِجُ لِلرَّأْيِ ... وَالرَّوَايَةِ

صحة الحديث وشروطه - هل يعذب الميت ببكاء أهله عليه ؟ - دائرة القصاص - تحية المسجد - حديث دنا الجبار فتدلى - تحقيق لعائشة - فتوى رعناء ... - موسى ومالك الموت - متهم برىء - هل نعى الموقى حرام ؟ - فضل الشام . . ! - نفقة المطلقة ثلاثا - إكراه الفتاة على الزواج ممن نكره

توثيق الأخبار لكون من إحقاق الحق وإبطال الباطل . وقد اهتم المسلمون اهتماما شديدا بهذا الجانب من المعرفة والاستدلال . لاسيما إذا اتصل الأمر بسيرة نبيهم وما ينسب إليه من قول أو عمل ...

إن هناك طريقا واحدا لإرضاء الله سبحانه وتعالى ونيل محبته . هو اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - واقتفاء آثاره والسير على مسته لقوله تعالى : « قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (٣) .

وأمتنا . من تاريخ بعيد . تصون التراث النبوي . وتحميه من الأوهام . وتعدّ الكذب على صاحب الرسالة طريق الخلود في النار ، لأنه تروير للدين واقتراء على الله لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن كذبا علىّ ليس ككذب على أحد ، من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وقد وضع علماء السنة خمسة شروط لقبول الأحاديث النبوية : ثلاثة منها في السند ، واثنان في المتن :

١ - فلا بد في السند من راوٍ واعٍ يضبط ما يسمع ، ويحكى بعدئذ طبق الأصل ..

٢ - ومع هذا الوعي الذكيّ لأبد من خلق متين وضمير يتق الله ويرفض أى تحريف

٣ - وهاتان الصفتان يجب أن يطردا في سلسلة الرواة . فإذا اختلفتا في راوٍ أو

(٣) آل عمران : ٣١

اضطربت إحداها فإن الحديث يسقط عن درجة الصحة .

ونظر بعد السند المقبول إلى المتن الذي جاء به ، أى إلى نص الحديث نفسه .

٤ - فيجب ألا يكون شاذاً .

٥ - وألا تكون به علة قاذحة .

والشذوذ أن يخالف الراوى الثقة من هو أوثق منه والعلة القاذحة عيب يبصره المحققون فى الحديث فيردونه به ..

وهذه الشروط ضمان كاف لدقة النقل وقبول الآثار بل لا أعرف فى تاريخ الثقافة الإنسانية نظيراً لهذا التأصيل والتوثيق والمهم هو إحسان التطبيق !

وقد توفر للسنة المحمدية علماء أولو غيرة وتقوى بلغوا بها المدى . وكانت غربلتهم للأسانيد مثار الثناء والإعجاب ثم انضم إليهم الفقهاء فى ملاحظة المتن ، واستبعاد الشاذ والمعلول .

ذلك أن الحكم بسلامة المتن يتطلب علماً بالقرآن الكريم . وإحاطة بدلالاته القرية والبعيدة . وعلماً آخر بشتى المرويات المنقولة لإمكان الموازنة والترجيح بين بعضها والبعض الآخر .

والواقع أن عمل الفقهاء متمم لعمل المحدثين . وحارس للسنة من أى خلل قد يتسلل إليها عن ذهول أو تساهل ..

إن فى السنة متواتراً له حكم القرآن الكريم . وفيها الصحيح المشهور الذى يفسر العموم والمطلق فى كتاب الله . وفيها حشد كبير من أحكام الفروع التى اشتغلت بها المذاهب الفقهية بعد ما اتفقت على أن السنة المصدر الثانى للأحكام .

وقد يصح الحديث سنداً ويضعف متناً بعد اكتشاف الفقهاء لعله كامنة فيه .

واكتشاف الشذوذ والعلّة في متن الحديث ليس حكراً على علماء السنة .
فإن علماء التفسير والأصول والكلام والفقه مسئولون عن ذلك . بل ربما ربت
مسئوليتهم على غيرهم ..

ألم تر إلى ابن حجر شارح صحيح البخارى في كتابه الجليل فتح البارى
الذى قال فيه العلماء بخق لا هجرة بعد الفتح !! إن الرجل على صدارته في
علوم السنة قوى حديث الغرائيق . وأعطاه إشارة خضراء قرأ بين الناس يفسد
الدين والدنيا . والحديث المذكور من وضع الزنادقة . يدرك ذلك العلماء
الراسخون ! .

وقد اتخدع به الشيخ محمد بن عبد الوهاب فجعله في السيرة التى كتبها عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ هو مَنْ هو غيرة على عقيدة التوحيد
ودفاعاً عنها ..

ثم جاء الوغد الهندى سلمان رشدى فاعتمد على هذا الحديث المكذوب في
تسمية روايته « آيات شيطانية ! » .

أليس من حق علماء الكلام والفقه والتفسير أن يخاربوا هذا القذى ؟ بل
إن حراس السنة الصحيحة رفضوا هذا الحديث المحقور ..

وفي هذه الأيام صدر تصحيح من الشيخ الألبانى لحديث « لحم البقر
داء » وكل مندبر للقرآن الكريم يدرك أن الحديث لا قيمة له . مهما كان
سنده ! .

إن الله تعالى في موضعين من كتابه أباح لحم البقر وامتنَ به على الناس
فكيف يكون داء ؟ .

في سورة الأنعام يقول « ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله
ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » ثم يفصل ما أباح أكله
فيقول : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » ثم يقول : « ومن

الإبل اثنين ومن البقر اثنين .. « فأين موضع الداء في هذه اللحوم المباحة على سواء ؟ » .

وفي سورة الحج يقول « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله . لكم فيها خير . فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » .
والبدن هي الإبل والبقر والجاموس ! فأين الداء فيها ؟ .

عيب بعض الذين يشتغلون بالحديث قصورهم في تدبر القرآن وفقه أحكامه فلم الغرور مع هذا القصور ؟ ولماذا يستكثرون على غيرهم من رجال الفكر الإسلامي الرحب أن يكتشفوا علة هنا أو شذوذا هناك ! .

إن التعاون في ضبط التراث النبوي مطلوب ، ومتن الحديث قد يتناول عقائد وعبادات ومعاملات يشتغل بها علماء المعقول والمنقول جميعا وقد يتناول الحديث شئون الدعوة والحرب والسلام ، فلماذا يُحرم علماء هذه الآفاق المهمة من النظر في المتن المروية ؟ .. وما قيمة حديث صحيح السند عليل المتن ؟؟ .

على أن هناك آفا من الأحاديث الخالية من العلل والشذوذ تم تسجيلها في دواوين السنة . فإذا بقي تزر يسير يتعاون في ضبطه الفقهاء والمحدثون فذلك خير وأولى ..

وفي عصرنا ظهر فتیان سوء يتناولون على أئمة الفقه باسم الدفاع عن الحديث النبوي . مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة . ولا استهانوا بحديث صحت نسبته وسلم متنه . وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللا في بعض المرويات فردوها - وفق المنهج العلمي المدروس - وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قبلا وأهدى سبيلا ...

وهم بهذا المنهج يتأسون بالنصحابة والتابعين . انظر موقف عائشة رضي الله عنها عندما سمعت حديث إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ! لقد أنكرته . وحلفت أن الرسول ما قاله . وقالت - بيانا لرفضها إياه - « أين منكم قول الله

سبحانه « لا ترز وازرة وزر أخرى » (١) .

إنها ترد ما يخالف القرآن بجرأة وثقة ، ومع ذلك فإن هذا الحديث المرفوض من عائشة ما يزال مثبتا في الصحاح بل إن « ابن سعد » في طبقاته الكبرى كرره في بضعة أسانيد ! .

قال : أخبرنا ثابت عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب لما طعن عوّلت حفصة . فقال : يا حفصة أما سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول إن المعول عليه يعذب ؟ قال وعول صهيب فقال عمر : يا صهيب أما علمت أن المعول عليه يعذب ؟ .

وقال : أخبرنا ابن عون عن محمد قال : لما أصيب عمر حمل فأدخل فقال صهيب : وأخاه ! .

فقال عمر : ويحك يا صهيب أما علمت أن المعول عليه يعذب ؟ .

وقال : أخبرنا أبو عقيل قال : أخبرنا محمد بن سيرين قال : أتى عمر بن الخطاب بشراب حين طعن فخرج من جراحته ، فقال صهيب : واعمراه وأخاه ، من لنا بعدك ؟

فقال له عمر : مه يا أخي أما شعرت أنه من يعول عليه يعذب ؟

وقال : أخبرنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الملك بن عمير عن أبي بردة عن أبيه قال : لما طعن عمر أقبل صهيب يبكي رافعا صوته . فقال عمر : أعلى ؟ قال : نعم . قال عمر : أما علمت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من يبك عليه يعذب ؟ .

قال عبد الملك : فحدثني موسى بن طالب عن عائشة أنها قالت : أولئك الذين يعذب أمواتهم يبكاء . أحيائهم ، هم الكفار .

والذى تؤكدُه عائشة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الكافر يعذب ببكاء أهله عليه ..

فعن ابن أبي مليكة قال : توفيت ابنة لعثمان رضى الله عنه بمكة . وجئنا لنشهدها وحضرها ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما وإني لجالس بينهما ..

فقال عبد الله بن عمر لعمر بن عثمان : ألا تنهى النساء عن البكاء ؟ فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » قال ابن عباس : قد كان عمر يقول بعض ذلك فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة . فقالت : رحم الله عمر ! والله ما حدثت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . ولكن رسول الله قل : « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه » .

وقالت : حسبكم القرآن « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

قال ابن عباس عند ذلك : والله هو أضحك وأبكى - يعنى أن بكاء التراحلين طبع لا حرج فيه ولا تثر يب عليه - قال ابن أبي منيكة : والله ما قال ابن عمر شيئا .. !!

وماذا يقول ؟ إن الخطأ غير مستبعد على راوٍ ولو كان فى جلاله ابن عمر .. وعندى أن ذلك المسلك الذى سلكته أم المؤمنين أساس لمحاكمة الصحاح إلى نصوص الكتاب الكريم . الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ...

من أجل ذلك كان أئمة الفقه الإسلامى يقررون الأحكام وفق اجتهاد رجب ، يعتمد على القرآن أولا ، فإذا وجدوا فى ركाम المرويات ما يتسق معه قبلوه ، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع .

ردّ البعض على هذا كنهه بأن معنى تعذيب الميت ببكاء أهله عليه أن الميت

يتعذب أى يتألم . لا أن الله يعذبه ! وهو تأويل لطيف . وإذا قبلناه لم يختلف الحديث مع الكتاب الكريم ! ولكن دون هذا التأويل صعوبات : منها أن عائشة تحلف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله ليزيد الكافر عذابا يبكاء أهله عليه ، ولم يذكر المؤمن ! .

وقد يقال : ولماذا يعذب الكافر بما لم يقترف ؟ أليس ذلك ظلما ؟ والجواب فى قوله تعالى « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون » وما يزداد فى عذاب الكافر لأنه سبب فى إضلال غيره .

والقول بأن المؤمن يتألم بعد موته لبكاء أهله مخالف للآية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا . وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » روى ابن كثير أن ذلك عند الموت ، ونقل عن زيد ابن أسلم : « يبشرونه عند موته ، وفى قبره ، وحين يبعث » وعلق على ذلك بأن هذا القول يجمع الأقوال كلها ، وهو حسن جدا ، وهو الواقع ! فأين يتعذب والحالة هذه ؟ إن الله مطمئنه على ما ترك ، وما سبلى .

وقد بشر الله الشهداء بأن من تركوه سوف يلحقون بهم فى خير « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ...

إننا لا نحرص على تضعيف حديث يمكن تصحيحه . وإنما نحرص على أن يعين الحديث داخل سياح من دلالات القرآن القرينة أو البعيدة .

وحديث الآحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة ، وإن صحَّ سنده فأبو حنيفة يرى أن من قاتلنا من أفراد الكفار قاتلناه . فإن قتل فالى حيث ألفت ، أما من له ذمة وعهد فقاتله يقتص منه .

ومن ثم رفض حديث لا يقتل مسلم فى كافر . مع صحة سنده ، لأن المتن

معلول بمخالفته للنص القرآني « النفس بالنفس »^(٥) وقول الله بعد ذلك « فاحكم بينهم بما أنزل الله »^(٦) .

وقوله « أفحكم الجاهلية يبغون »^(٧) ؟

وعند التأمل نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة ، وإلى موثيق حقوق الإنسان ، وإلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض والسواد ، أو الحرية والعبودية ، أو الكفر والإيمان .

لو قتل فيلسوف ، كانس طريق ، قتل فيه ! فالنفس بالنفس .. !!

وقاعدة التعامل مع مخالفينا في الدين ومشاركينا في المجتمع أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، فكيف يهدر دم قتيلهم ؟ .

وقد بلغني أن بدويا قتل مهندسا أمريكيا في إحدى دول الخليج . وقال أهل الحديث لا يجوز القصاص ! وشعرت الحكومة بالخرج ، ولكن تم الخروج من المأزق بقتل المحرم من باب السياسة الشرعية !

القصاص شريعة الله . وهو ظاهر القرآن الكريم . والأحناف يقدمون ظاهر القرآن على حديث الآحاد . والمالكيون يقدمون عمل أهل المدينة على حديث الآحاد باعتبار أن عمل أهل المدينة أدل على السنة النبوية من حديث راوٍ واحد .

وقد أمضى مالك القصاص للفرع من الأصل ، إذا كان الأب القاتل قد أقدم على الجريمة عامدا مصرا مغتالا . وترك الحديث الوارد بمنع هذا القصاص مع صحة منده ..

وأهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل . وهذه سوءة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون ! .

فالدية في القرآن واحدة للرجل والمرأة . والزعم بأن دم المرأة أرخص .

(٥) . (٦) . (٧) : المائدة : ٤٥ - ٤٨ - ٥٠

وحقها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب .

إن الرجل يُقتل في المرأة كما تُقتل المرأة في الرجل . قدمها سواء باتفاق .
لما الذي يجعل دية دون دية ؟ .

كنت في مجلس مع أستاذنا مصطفى الزرقا . فقال لي : إن الدية تعويض
عن مفقود ! وفي العوض يلاحظ التكافؤ ومقتل الرجل خسارة للأسرة أفدح
من مقتل المرأة . والفقهاء لم يفكروا قط في إهانة المرأة ماديا أو أدبيا ، وإنما
نظروا في قيمة العوض المطلوب ! .

ثم قال : إن القوانين الغربية لم تسوّ بين المرأة والرجل في أجر العمل . ولم
تسوّ بينهما في تصرفات مالية شتى . إنما سوّت بينهما في فرص المودة الحرام
والحلل !! .

وقال الأستاذ معروف الدواليبي : إنه عندما كان يشارك في وضع القوانين
في باكستان على أساس الشريعة الإسلامية سوّى في الدية بين الرجل والمرأة .
إيثارا للرأى القائل بذلك . واستثناسا بمسلك عثمان بن عفان الذي أكمل دية
الذمى وكانت على النصف من دية المسلم ...

قال : رأينا أن نسدّ الطريق على من يتهمون الإسلام بانتقاص مكانة
المرأة .

وفي مسلك الخليفة الراشد الثالث ما يدل على إمكان التغيير إذا تغيرت
الأوضاع . ويبدو أن أهل الذمة اندمجوا في المجتمع الإسلامى عن إخلاص .
فراى عثمان طمأننتهم على مكانتهم بتعزيز دياتهم !! .

على أن الفقه الحنفى يسوى في الدماء والديات بين الجميع ...

وقد فكرت في السبب الذى جعل الأحناف والمالكية يكرهون تحية المسجد
والإمام يخطب مع ورود حديث بطلب هذه التحية ! .

وبعد تأمل يسير رأيت أن خطبة الجمعة شرعت بعد الهجرة ، وظل المسلمون

يصلون الجمع وراء النبي - عليه الصلاة والسلام - عشر سنين ! أى أن هناك نحو خمسمائة خطبة أُلقيت خلال هذه المدة ، فأين هي ؟

إن المحدثين لم يهملوا تسجيل كلمة عابرة ، أو فتوى خاصة ، أو إجابة لسائل ، فكيف تركوا هذه الخطب ؟.

كل ما دونوه بضع خطب لا تبلغ أصابع اليد !.

النواقع أن النبي - عليه الصلاة والسلام - كان يخطب الناس بالقرآن الكريم . وعندما يكون على منبره أو في محرابه يتلو كتابه . فعلى الجميع الصمت والتدبُّر

يستحيل أن يشغل عنه أحد بقراءة أو بصلاة !.

كذلك جاء التوجيه الإلهي : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »^(٨) إن رب العالمين يستمع إلى نبيه وهو يقرأ كما جاء في الحديث الشريف « ما أذن الله لشيء أذنه لنبي يقرأ القرآن يتغنى به » فكيف يتشاغل عنه الناس ؟.

كانت السنة إذن هي الاستماع للخطب ، وما جاء في حديث الأمر بتحية المسجد كان حالة خاصة بالرجل المذكور ، وظلت السنة العملية تمنع الكلام والصلاة في أثناء الخطبة . بل إن مالكا أبطل هذه الصلاة . وما أظن صاحب الموطأ يهتم بمعادة سنة ثابتة .

وندع قضية الخطب فيها سهل ، إلى قضية علمية مهمة لها وزنها ، ولا نحب أن نجعل منها قضية عقائدية .

من الذي نزل بالقرآن الكريم على صاحب الرسالة العظيمى محمد بن عبد الله ؟.

(٨) الأعراف : ٢٠٤

يقول المسلمون خاصتهم وعامتهم إنه أمين الوحي جبريل ! وليس هذا القول وليد إشاعة لا يدري مصدرها ! بل هو قول مستند إلى المتواتر من الكتاب والسنة جميعا ..

وأذكر هنا خمسة مواضع في القرآن الكريم تؤيد هذه الحقيقة

١ - « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين »^(٩) والآية واضحة الدلالة

٢ - « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين »^(١٠) وروح القدس هو جبريل ، وهو عبد لله وليس إلهًا كما يتوهم البعض .

وفي هذه الآية والتي سبقتها نلاحظ أن الوحي الأعلى هداية وبشرى . هداية للشعوب الخائرة ، وبشرى تورث الأفراح وتحقق الآمال لمن يرتبطون بهذا الوحي ... !

٣ - « وإنه لتنزِيل رب العالمين . نزول به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . وإنه لفي زبر الأولين »^(١١) وظاهر أن الذي نزل بالوحي هو الروح الأمين وأن الرسول الكريم شرع يعلم الناس ويدعوهم بعدما تلقى هذا الوحي المبارك . وأن رسالته تصديق وامتداد لرسالات النبيين الأولين في العقائد وحسن الخلق .

٤ - وقد أقسم الله تبارك وتعالى على عظمة هذا القرآن فقال : « إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين »^(١٢) .

(٩) البقرة : ٩٧

(١٠) النحل : ١٠٢

(١١) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٦

(١٢) التكوين : ١٩ - ٢١

ونلاحظ هنا عدة أوصاف لأمين الوحي . فهو رسول كريم . وهو صاحب قوة . وهو صاحب مكانة عند ذى العرش . وهو مطاع في موضعه ، وأمين .

وبين هذه الصفات وبين ما جاء في سورة النجم مشابه . فلتدبرها في الموضع الأخير..

٥ - « إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى ... » (١٣)

القوى الذى علم الوحي ، ونزل به إلى السماء الدنيا ، وحلق به في جَوْ الأرض ، ثم اقترب به من الرسول العربي هو جبريل بداهة . ولا يتحمل السياق إلا هذا ، ولا تتحمل آيات القرآن كلها في غير هذا الموضوع إلا هنا ... !

ومع ذلك فقد جاءت في الأحاديث المنقولة بطريق الآحاد رواية مستغربة أن الذى دنا فتدلى هو الله !! .

والرواية تخالف المتواتر المقطوع به في الكتاب والسنة ، ومن هنا لم يكثر بها المحققون بل جمّدت في مكانها حتى جاء ضعفاء الفقه فاستحيوها دون وعى ..

وقد ضقت ذرعا بأناس قليلي الفقه في القرآن كثيри النظر في الأحاديث . يصدرّون الأحكام ، ويرسلون الفتاوى فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة .

ولازلت أحذر الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن قليل ، وحديثهم عن

الإسلام جرىء . واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي المستوعب لشئون الحياة ...

وقد جاء الإمام مسلم رحمه الله فعلق على رواية إمامه البخاري رحمه الله . فبين ما بها من عطب ، وذكر أن الخطأ جاء من شريك عن أنس بن مالك الذي ذكر الحديث فزاد ونقص وقدم وأخر ... !! .

إن مسلماً مضى على منهج المحدثين . فناقش عمل شريك - الراوى عن أنس - ثم رفض المتن ! وحسناً فعل .

إن الخطأ في تفسير آية « النجم » والزعم بأن المعنى « دنا الجبار رب العزة فتدلى » كانا مثار استنكار السيدة عائشة رضي الله عنها ! فلما سألتها مسروق : يا أمه هل رأى محمد ربه ؟ قالت : لقد قفّ شعر رأسي مما قلت ! أين أنت من ثلاث ؟ من حدثكهن فقد كذب !!

من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١٤) « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب » (١٥) .

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ! ثم قرأت « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » (١٦) .

ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب ، ثم قرأت « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . » (١٧) ، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين ... وأما المؤمنون عائشة ففقيه محدثة أدبية ، وهي وقافة عند نصوص القرآن ،

(١٤) الأنعام : ١٠٣

(١٥) الشورى : ٥١

(١٦) لقمان : ٣٤

(١٧) المائدة : ٦٧

ترفض أدنى تجاوز لها .. وعندما سمعت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقف على حافة البئر التي دفن المشركون بها يناديهم بأسمائهم كان لها تعليق جدير بالتدبر .

والرواية في هذا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : أيسركم أنكم أطعم الله ورسوله ، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ .

فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ! .

أنكرت عائشة عبارة « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » مستدلة بالآية الشريفة « وما أنت بمسمع من في القبور »^(١٨) وصححت الرواية : ما أنتم بأعلم لما أقول منهم ! .

قال قتادة مينا الرواية الأولى ومدافعا عنها : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبخا وتصغيرا ..

والذي أراه أن الرواية الأولى لا تحتاج إلى هذا الدفاع ، فالملوق لم ينفوا ، وصوت النبوة يبلغهم وهم في سجين .. ولكن عائشة رضى الله عنها لا تقبل ما يعارض - في ظاهره - لفظ القرآن ، فالملوق عادة لا يكلمون ولا يسمعون ، وإنما يعلمهم الله بما يشاء . فإذا علموا فكأنهم سمعوا . والعبارة مقبولة على طريق المجاز ...

كل ما نحصر نحن عليه شد الانتباه إلى ألفاظ القرآن ومعانيه ، فجملة غفيرة من أهل الحديث محجوبون عنها . مستغرقون في شئون أخرى تعجزهم عن تشرب الوحي !! .

(١٨) فاطر : ٢٢

والفقهاء المحققون إذا أرادوا بحث قضية ما ، جمعوا كل ما جاء في شأنها من الكتاب والسنة ، وحاكموا المظنون إلى المقطوع ، وأحسنوا التنسيق بين شتى الأدلة ...

أما اختطاف الحكم من حديث عابر ، والإعراض عما ورد في الموضوع من آثار أخرى فليس عمل العلماء ...

وقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمي هم القادة الموثقون للأمة ، الذين أسلمت لهم زمامها عن رضا وطمأنينة ، وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار كما تقدم مواد البناء للمهندس الذي يبني الدار ، ويرفع الشرفات .

والواقع أن كلا الفريقين يحتاج إلى الآخر ، فلا فقه بلا سنة ولا سنة بلا فقه ، وعظمة الإسلام تتم بهذا التعاون .

والحنّة تقع في اغترار أحدهما بما عنده ، وتزداد مع الإصرار وضعف البصيرة ..

وقد ظهرت في الجزائر فتوى لواحد من أهل الحديث حاربناها بقوة قبل أن نصيب الإسلام وأهله بضر شديد .

إن على التجار في بضائعهم زكاة يتقربون إلى الله بأدائها . والتجار في الدنيا ملوك المال وقد افتتح الانجليز القارة الهندية بشركة تجارية . ولا يزال الاستعمار الاقتصادي يهيمن على مبادي التجارة حتى يمتلك أعناق الشعوب !

فكيف يزعم زاعم أن عروض التجارة لا زكاة فيها ؟ وأين نذهب بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة »^(١٩) وقوله تعالى « وما رزقناهم ينفقون »^(٢٠) . وقوله « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض »^(٢١)

(١٩) . (٢٠) . (٢١) البقرة : ٢٥٤ . ٣ . ٢٧٧

لكن الشاب المشتغل بالحديث النبوى نادى فى الناس ألا زكاة فى عروض التجارة ، إذ لا أصل لها فيها قرأ ...

وضمّ إلى ذلك أن الزكاة فى الزراعة لا تخرج إلا من القمح والشعير والتمر والزبيب . كأن الكرة الأرضية هى نجد ونهامه والحجاز !!

والمفتى القاصر يهبط بحصيلة الزكاة إلى العشر مادام جمهور التجار والفلاحين قد أعفى من إيتاء الزكاة ، وسقط عنهم ركن الإسلام

ومنى يقع هذا ؟ فى أيام جندت الكنيسة خلالها ثروات التجار والفلاحين لتنصير العالم الإسلامى المبلى بجذب الأرض وجذب العقول !

لماذا لا نتدبر القرآن أولا حتى نعرف أبعاد التكاليف التى ناطها الإسلام بأعناقنا ، وأوعية المال التى نخرج منها زكواتنا ؟.

ولماذا لا نعرف طبيعة الدنيا التى نعيش فيها ، والأساليب التى يتبعها خصومنا لكسب معاركهم ضدنا ؟.

إنه لا فقه مع العجز عن فهم الكتاب ومع العجز عن فهم الحياة نفسها ..

وبعض المشتغلين بالحديث يستوعر تدبر القرآن ، ودراسة دلالاته القرية والبعيدة . ويستسهل سماع حديث ما ثم يحتطف الحكم منه فيشقى البلاد والعباد .

قلنا : إنه لا خلاف بين المسلمين فى العمل بما صحت نسبته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفق أصول الاستدلال التى وضعها الأئمة ، وانتهت إليها الأمة .

إنما ينشأ الخلاف حول صدق هذه النسبة أو بطلانها ... وهو خلاف لا بد من حسمه ، ولا بد من رفض الافتعال أو التكلف فيه .

فإذا استجمع الخبر المروى شروط الصحة المقررة بين العلماء فلا معنى لرفضه وإذا وقع خلاف محترم في توفر هذه الشروط أصبح في الأمر سعة ، وأمكن وجود وجهات نظر شتى . ولا علاقة للخلاف هنا بكفر ولا إيمان ، ولا بطاعة أو عصيان ..

وقد وقع لى وأنا بالجزائر أن طالبا سألنى : أصحيح أن موسى عليه السلام فقاً عين ملك الموت عندما جاء لقبض روحه ، بعدما استوفى أجله ؟ فقلت للطالب وأنا ضائق الصدر : وماذا يفيدك هذا الحديث ؟ إنه لا يتصل بعقيدة . ولا يرتبط به عمل ! والأمة الإسلامية اليوم تدور عليها الرحى ، وخصوصها طامعون في إخماد أنفاسها ! اشتغل بما هو أهم وأجدى !

قال الطالب : أحببت أن أعرف هل الحديث صحيح أم لا ؟ فقلت له متبرما : الحديث مروى عن أبي هريرة ، وقد جادل البعض في صحته .

وعدت لنفسى أفكر : إن الحديث صحيح السند ، لكن منته يثير الريبة . إذ يفيد أن موسى يكره الموت ، ولا يحب لقاء الله بعدما انتهى أجله ، وهذا المعنى مرفوض بالنسبة إلى الصالحين من عباد الله كما جاء في الحديث الآخر « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » . فكيف بأنبياء الله ؟ وكيف بواحد من أولى العزم ؟ إن كراهيته للموت بعدما جاء ملكه أمر مستغرب ! ثم هل الملائكة تعرض لهم العاهات التي تعرض للبشر من عى أو عور ؟ ذلك بعيد .

قلت : لعل متن الحديث معلول ، وأيا ما كان الأمر فليس لى ما يدفعنى إلى إطالة الفكر فيه ..

فلما رجعت إلى الحديث فى أحد مصادره ساعنى أن الشارح جعل ردّ الحديث إلحادا ! وشرع يفند الشبهات الموجهة إليه فلم يزدّها إلّا قوة ... وهالك الحديث أولا :

عن أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « جاء ملك الموت إلى موسى - عليه السلام - فقال له : أجب ربك ، قال : فلطم موسى - عليه السلام - عين ملك الموت ، ففقاها ، قال : فرجع الملك إلى الله تعالى ، فقال : إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد فقا عيني ، قال : فردّ الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدى فقل له : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة . قال : ثم مه ؟ قال : ثم تموت ، قال : فالآن من قريب ، رب أمتنى من الأرض المقدسة رمية بحجر » .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « والله لو أتى عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » (٢٢) .

قال المازرى :

وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصويره ، قالوا : كيف يجوز على موسى فقاء عين ملك الموت ؟ .

قال : وأجاب العلماء عن هذه الشبهة بأجوبة :

أحدها : أنه لا يمتنع أن يكون موسى - صلى الله عليه وسلم - قد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة ، ويكون ذلك امتحانا للملظوم ، والله - سبحانه وتعالى - يفعل في خلقه ما شاء ، ويمتحنهم بما أراد !!

والثاني : أن هذا على المجاز ، والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه بالحجة ، ويقال : فقا فلان عين فلان إذا غلبه بالحجة ، ويقال : عورت الشيء إذا أدخلت فيه نقصا .

وعلق المازرى على الرأى الثانى بقوله :

(٢٢) اجب ربك : استعد للموت - متن الثور : ظهره - مه : استمهام معناه ثم ماذا يكون ؟ حياة أم موت ؟ - رمية حجر : قذر ما يبلغه . - الكثيب : كوم الرمال .

وفى هذا ضعف لقوله - صلى الله عليه وسلم - فرد الله عينه ، فإن قيل : أراد حجته كان بعيدا .

والثالث : أن موسى - صلى الله عليه وسلم - لم يعلم أنه ملك من عند الله ، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه (أى يريد قتله) فدافعه عنها ، فأدت المدافعة إلى فقه عينه ، لا أنه قصدها بالفقه ، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين ، واختاره المازرى والقاضى عياض .

قالوا : وليس فى الحديث تصريح بأنه تعتمد فقه عينه ، فإن قيل : فقد اعترف موسى حين جاءه ثانيا بأنه ملك الموت .

فالجواب : أنه أتاه فى المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى .

نقول نحن : هذا الدفاع كله خفيف الوزن ، وهو دفاع تافه لا يساغ !!
ومن وصم منكر الحديث بالإلحاد فهو يستطيل فى أعراض المسلمين . والحق : أن فى متنه علة قاذحة تنزل به عن مرتبة الصحة .

ورفضه أو قبوله خلاف فكرى ، وليس خلافا عقائديا .

والعلة فى المتن يبصرها المحققون ، وتحق على أصحاب الفكر السطحي .

سمعت كلاما حاداً ممن يروون أن موسى فقاً عين ملك الموت حقا ، وأن هذا غير مستغرب .

وقبل أن أذكر ما عندى أثبت هنا حديث أحمد عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كرهه لقاءه ! قلنا : يا رسول الله كلنا نكره الموت ! فقال رسول الله : ليس ذلك كراهية الموت ! ولكن المؤمن إذا حُضِر - احتضر - جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى . فأحب لقاء الله !! ... قال : وإن الفاجر أو الكافر إذا حُضِر - احتضر - جاءه

« النذير » بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقي من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه .

والحديث المذكور يتجاوز أحوال الصحة المعتادة ، وانغماس الناس في معاشهم يزرعون ويصنعون ويتجرون ، فإن إقبالهم على الحياة لا نكر فيه ، ونزول الموت هنا قد يوصف بأنه مصيبة ! وما تقوم الدنيا وينشأ عمرانها إلا من هذا الشعور بالحياة وحبها .

على أن المؤمن قد يبتد الحياة الدنيا في ساعة فداء ينصر بها دينه ويلقى بها ربه . فهو وإن انغمس في شئون الدنيا لا ينسى أبدا دينه . ولا ينكص عن لقاء ربه .

وحديث أحمد بن حنبل يتجاوز هذه الظروف كلها ليشرح اللحظات الأخيرة من عمر المتوفى وهو في فراش المرض ، أو وهو على أبواب الآخرة ، وقد شرع ملك الموت يسرد الروح ليعود بها إلى بارئها . في هذه الأوقات الحرجة نجى البشرى التي يطير بها المؤمن فرحاً ، أو الأنباء التي ينوء بها الفاجر كمداً

فلننظر على ضوء هذه الحقائق إلى حديث فقهاء موسى لعين ملك الموت .. إن الملك قال لموسى : أجب ربك .. يعنى أن عمرك انتهى ، فاستعد لتسليم روحك والعودة إلى ربك !! .

أفى هذه العودة ما يضايق موسى ؟ قال المدافعون عن الحديث : موسى كسائر البشر يكره الموت ! ونقول : كراهية الموت مفهومة في الأحوال العادية للناس العاديين ، ولا معنى لها بعد انتهاء الأجل ، ومجىء الملك ليسرد وديعته ! .

ما الذى يكرهه موسى من اللقاء الحتم ؟ إن هذا الكره تحول إلى جزع وغضب جعلاً موسى يفتأ عين الملك كما يقال ! .

يقول المدافعون عن الحديث : إن موسى فقاً الصورة التي تمثل بها الملك ،
لأنه جاء في صورة بشر .. ويرد ذلك ما جاء في الحديث أن الله رد إليه عينه .
أفكان موسى عاجزاً عن إصلاح العور في الهيئة التي تشكل فيها ؟ .

وقد طلب موسى أن يدفن على مرمى حجر من حدود فلسطين التي جبن قومه
عن دخولها فهل هذا الطلب تفسير لحرص اليهود الآن على نقل موتاهم إلى
الأرض المقدسة ؟ .

وسمعت من قال : إن الحديث من الابتلاء بالغيب ؟ والإيمان بالغيوب حق
إذا كانت مستيقنة المصدر أما انسياق الغامض والأسلوب المضطرب فيها موضع
بحث الفقهاء ليتعرفوا الحقيقة من خبر آحاد . يتعرض للدرس والفحص سنداً
ومتناً ...

وأخيراً فهذا الحديث وأمثاله مما لا صلة له بعقيدة أو سلوك قارئ في مكانه
تعدوه العين إلى المهم من تعاليم الإسلام العملية ، فن نبش الثراب عنه ، وشغل
الناس به . ونسب إلى الإلحاد من يتوقف فيه ؟ إن أعداء الصحوة الإسلامية من
وراء هذا الحراك الطائش ...

وقد رفض الأئمة أحاديث صح سندها واعتل منها فلم تستكمل بهذا الخلل
شروط الصحة ..

ومن أجل ذلك . استغربنا ما رواه ثابت عن أنس أن رجلاً كان يتهم بأمر ولد
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعليّ
أذهب فاضرب عنقه ، فأتاه عليّ فإذا هو في ركنٍ يتبرد فيها فقال له عليّ : أخرج
فناولته يده فأخرجه فإذا هو محبوب ليس له ذكر ! فكفّ عليّ عنه ثم أتى
النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال يا رسول الله إنه لمحبوب ما له ذكر .

يستحيل أن يحكم على رجل بالقتل في تهمة لم تحقق ، ولم يواجه بها
المتهم ، ولم يسمع له دفاع عنها ، بل كشفت الأيام عن كذبها ! .

وقد حاول النوى غفر الله لنا وله تسويغ هذا الحكم ، بقوله : لعل الرجل كان منافقا مستحقا للقتل لسبب آخر ! ونقول : متى أمر رسول الله بقتل المنافقين ؟ ما وقع ذلك منه ! بل لقد نهى عنه .

وظاهر من السياق أن الرجل نجا من القتل بعدما تبين من العاهة التي به استحالته توجيه الاتهام إليه ، أفلو كان سليما أبيع دمه ؟ هذا أمر تأباه أصول الإسلام .. وفروعه كلها .

إن بالحديث علة قاذحة : وهي كافية في سلب وصف الصحة عنه ، وأهل الفقه لا أهل الحديث هم الذين يردون هذه الرويات .

قال مدافع عن هذا الخبر : لعله من باب التعزير ؟ وهذا تفكير مستنكر ! هل الإسلام أعطى وليّ الأمر حق قتل الناس لشبهة أو شائعة ؟ أباسم التعزير تستباح الدماء على نحو طائش .. ؟ إننا نقتل ديننا بهذا الفهم ، ونعرض سيرة نبينا للقبيل والقال

ومما يحتاج إلى الفقه السليم تحريم نعي الموتى ، ورفض ما تنشره الصحف الآن من إعلانات عن وفاة فلان وفلانة .. وقد جاءني بعض الطلاب يقولون : إنهم قرؤوا أحاديث تفيد ذلك ، ومن ثم فهم يستنكرون الايذان بأخبار الموتى .

قلت : إن النعي المكروه ما كان استعراضا للمآثر والمفاخر ، وتنويها بالأفراد والأسر ، أما ما عدل ذلك فلا شائبة فيه ، بل لا بد منه .. !

قالوا : مارواه الترمذى وابن ماجه غير ما تقول ! عن حذيفة رضى الله عنه قال عندما احتضر : « إذا أنا مت فلا يؤذن على أحد . إني أخاف أن يكون نعيًا ، وإني سمعت رسول الله ينهى عن النعي » .

هكذا روى الترمذى ، وأكد ابن ماجه الرواية إلا أنه قال : « كان حذيفة

إذا مات له الميت قال : « لا تؤذنوا به أحدا ، إني أخاف أن يكون نعيًا ، إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذني هاتين ينهى عن النعي » .
وعن عبد الله بن مسعود « أن رسول الله كان ينهى عن النعي . وقال : إياكم والنعي فإنه من عمل الجاهلية » قال عبد الله والنعي : أذان بالميت ..
ونحن نؤكد أن النعي المحظور ما قارنه الرياء وإحياء العvisية أما الإخبار المعتاد فيستحيل كرهه .

وما أكثر الأحاديث المنتشرة اليوم بين الشباب ، يستتجون منها أحكاما سيئة . إن قبلنا سندها على إغماض فإن منها لا يصح قبوله ! .

وقد قرأت للمندري رحمه الله في كتابه « الترغيب والترهيب » ستة عشر حديثا في سكنى الشام وما جاء في فضلها .

منها ما جاء عن زيد بن ثابت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوما ونحن عنده : « طوبى للشام . إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه » وأغلب الأحاديث الستة عشر تدور على هذا المعنى ، وأغلبها من رواية الترمذى والحاكم والطبرانى وابن حبان وأبى داود وأحمد ...

ونحن نحب أقطار الإسلام كلها ونعدّ أهلها إخواننا ، ونرى نصرتهم ديننا . وخذلانهم كفرًا ، وما يروى في تفضيل بلد على آخر والترغيب في سكناه أو المراقبة فيه فهو عندما يتعرض الإسلام للخطر من قبله أو تحدث ثغرة في حدوده تتطلب الرجال لسدها ..

وذلك كما تتجمع كرات الدم البيضاء لحماية الجسم من الجراثيم الغازية ، عندما يصاب بجرح . أو تنشأ به قرحة . إن مسارعة قوات الدفاع هنا مفهومة الحكمة ..

أما في حالة الجسم العادية ، فوقف الكرات من جميع الأعضاء واحد ..

والواقع أن دار الإسلام الآن مهددة من ثغرات شتى ، والغزاة يتواثبون حولها شرقا وغربا ..

ولما كانت فلسطين جزءا من الشام فنحن نعد الفرار منها عصيانا والثبات فيها جهادا . وللمدافعين عن الإسلام في أفغانستان والقبليين ، وسائر أراضيه كل الحقوق التي لعرب فلسطين ، أو لأرض الشام كما جاء في الأحاديث الستة عشر... !!

كان عمر رضى الله عنه يشغل نفسه ويشغل الناس معه بالقرآن الكريم ويوصي الجيوش أن تلهج به وتعكف عليه . ومن أفضيته التي استند فيها إلى القرآن وحده : مارواه ابن إسحاق ، قال : كنت جالسا مع الأسود بن يزيد في المسجد الأعظم ، ومعى الشعبي . فحدث بحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يجعل لها سكنى ولا نفقة - وكانت قد طلقت ثلاثا - فأخذ الأسود كفا من حصي فحصبه به ! ثم قال : ويلك تحدث بمثل هذا ؟ قال عمر : لا تترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى حفظت أم نسيت . لها السكنى والنفقة . قال تعالى « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

وحديث فاطمة المذكور هو موضع خلاف بين الفقهاء ، رفضه الأحناف ، وقبله الحنابلة ، ويرى المالكية والشافعية : أن المطلقة ثلاثا لها السكنى دون النفقة . وملحظ الحنابلة : أن سياق الآية التي ذكرها عمر في الطلاق الرجعي لا البائن ، ولئن شاء أن يدرس القضية في مصادرها ، والذي يعيننا منها : هو أن « عمر » جعل ظاهر القرآن هو السنة التي تتبع ! .

وإذا كنا نقدم الرأي القوي على الرواية المريبة فيما سقنا قبلا من نماذج فإن عجبنا يشتد عندما نرى من يترك النقل والفقهاء معا في بعض الأحكام .

اتفق المحدثون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تنكح الأيم

حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن. قالوا: يا رسول الله وكيف إذن؟
قال: « أن تسكت » وفي رواية: « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تُستأمر ،
وإذنها سكوئها » ! .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن جارية بكرا أتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكرت أن أباه زوجها وهي كارهة ! ، فخيرها رسول الله .

وفي رواية: « أن فتاة دخلت على عائشة فقالت : إن أبي زوجني من ابن
أخيه يرفع بي خسيسته وأنا له كارهة ! قالت عائشة : اجلسي حتى يأتي رسول
الله ! فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته ، فأرسل إلى أبيها فدعاه ،
فجعل الأمر إليها !

فقالت : يا رسول الله ، قد أجزت ما صنع أبي ، ولكنني أردت أن أعلم
النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء ! » .

ومع هذا فإن الشافعية والحنابلة أجازوا أن يجبر الأب ابنته البالغة على
الزواج بمن تكره !! ، ولانرى وجهة النظر هذه إلا انسياقا مع تقاليد إهانة
المرأة ، وتحقير شخصيتها ...

وقد ذكرنا أن الأحناف أعطوا المرأة حق أن تباشر عقدتها إمضاء لظواهر
القرآن .. « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله
جميعا » (٢٣)

في عالم النساء

الحجاب والنقاب - المرأة والأسرة والوظائف العامة -
علاقة المرأة بالمسجد - شهادة المرأة في الحدود والقصاص .

مَعْرَكَةُ الْحِجَاب ... !!

نريد للصحة الإسلامية المعاصرة أمرين : أولهما: البعد عن الأخطاء التي انحرفت بالامة وأذهبت ريحها وأطمعت فيها عدوها .. والآخر: إعطاء صورة عملية للإسلام تعجب الرائيين ، وتمحو الشبهات القديمة وتنصف الوحي الإلهي ..

ويؤسفني أن بعض المنسوين إلى هذه الصحة فشل في تحقيق الأمرين جميعا ، بل ربما نجح في إخافة الناس من الإسلام ، ومكّن خصومه من بسط ألسنتهم فيه ..

ولنستعرض هنا طائفة من المعارك التي أثاروها ، أو المبادئ التي رأوا أن ينطلقوا منها . ونبدأ بمعركة النقاب ! .

قرأت كتيباً في إحدى دول الخليج يقول فيه مؤلفه : إن الإسلام حرم الزنا ! وإن كشف الوجه ذريعة إليه . فهو حرام لما ينشأ عنه من عصيان ! قلت : إن الإسلام أوجب كشف الوجه في الحج . وألفه في الصلوات كلها ، أفكان بهذا الكشف في ركنين من أركانه يثير الغرائز ويمهد للجريمة ؟ ما أضلّ هذا الاستدلال ! .

وقد رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - الوجوه صافرة في المواسم والمساجد والأسواق فما روى عنه قط أنه أمر بتغطيتها . فهل أنتم أغبر على الدين والشرف من الله ورسوله ؟ .

ولنتنظر إلى كتاب الله ورسوله لنستجلى أطراف الموضوع

١ - إذا كانت الوجوه مغطاة فمّ يغض المؤمنون أبصارهم؟ كما جاء في الآية الشريفة « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ... » (٢٤) . أيغضونها عن القفا والظهر؟ ..
الغض يكون عند مطالعة الوجوه بداهة ، وربما رأى الرجل ما يستحسنه من المرأة فعليه ألا يعاود النظر عندئذ كما جاء في الحديث . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعلى رضى الله عنه : « يا على لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة » ١ .

٢ - وقد رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - من تستثار رغبته عند النظر المفاجئ . وعندئذ فالواجب على المتزوج أن يستغنى بما عنده كما روى جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - « إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله - أى ليذهب إلى زوجته - فإن ذلك يرد ما في نفسه » .
فإن لم تكن له زوجة فليع قوله تعالى : « وليستغف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » (٢٥) .
حكى القاضي عياض عن علماء عصره - كما روى الشوكاني - أن المرأة لا يلزمها ستر وجهها وهى تسير فى الطريق ، وعلى الرجال غض البصر كما أمرهم الله ...

٣ - فى أحد الأعياد خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - النساء - ومضى العيد يجمع الرجال والنساء بأمر من رسول الله - فقال لمن : « تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم » فقالت امرأة سفعاء الخدين جالسة فى وسط النساء : لم نحن كما وصفت ؟ قال : « لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير » يعنى - عليه الصلاة والسلام - أن نساء كثيرات يتحدثن حق

(٢٤) النور : ٣٠

(٢٥) النور : ٣٣

الزوج ، وينكرن ما يبذل في البيت ولا تسمع منهن إلا الشكوى ! . .
قال الراوى : فجعلن يتصدقن من حلين ، يلقين في ثوب بلال من
أقراطهن وخواتمهن . . . ! والسؤال : من أين عرف الراوى أن المرأة
سفعاء الخدين - ؟ والخد الأسفع هو الجامع بين الحمرة والسمرة -
ما ذلك إلا لأنها مكشوفة الوجه .
وفى رواية أخرى : كنت أرى النساء وأيديهن تلقى الحلى في ثوب بلال . .
فلا الوجه عورة ولا اليد عورة .

٤ - قال بعض الناس : إن الأمر بكشف الوجه في الحج ، أو في الصلاة ،
يعطى أن الوجه يجب ستره فيما وراء ذلك . وأن على المرأة ارتداء النقاب
والقفازين ! .

ونقول : هل إذا أمر الله الحجاج بتعرية رؤوسهم في الإحرام كان ذلك
يفيد أن الرؤوس تغطى وجوبا في غير الإحرام ؟ من قال ذلك ؟ من
شاء غطى رأسه ومن شاء كشفه ..

٥ - عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله . جئت لأهب لك نفسى ، فنظر
إليها رسول الله فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه - لم يجها بشيء -
فلما رأت أنه لم يقض فيها بشيء جلست
وفى رواية أخرى أن أحد الصحابة خطبها ، ولم يكن معه مهر فقال له
النبي : التمس ولو خاتما من حديد ! .
وانتهت القصة بزواجه منها .

والسؤال فيم صعد النظر وصوبه إن كانت منقبة ؟ .

٦ - عن ابن عباس كان الفضل رديف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فجاءت امرأة من خثعم - تسأله - فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه

وجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر... فقالت
يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج ، وقد أدركت أبي شيخا
كبيرا لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم .. وكان ذلك في
حجة الوداع - أى لم يأت بعده حديث ناسخ -.

٧ - وحدثت عائشة قالت : كان نساء مؤمنات يشهدن مع النبي صلاة
الفجر ، متلحفات بمروطهن - مستورات الأجساد بما يشبه الملاءة - ثم
ينقلبن إلى بيوتن حين يقضين الصلاة ، لا يعرفن من الغلس - تعنى أنه
لولا غيش الفجر لعرفن لانكشاف وجوههن -.

٨ - على أن قوله تعالى : « وليضرن بخمرهن على جيوبهن »^(٢٦) يحتاج إلى
تأمل ، إذ لو كان المراد إسدال الحمار على الوجه لقال : ليضرن بخمرهن
على وجوههن ، مادامت تغطية الوجه هي شعار المجتمع الإسلامي ، وما
دامت للنقاب هذه المتزلة الهائلة التي تنسب إليه . . وعند التطبيق العملي
لهذا الفهم اضطرت النساء لاصطناع البرقع أو حجب أخرى على
النصف الأدنى للوجه كي يستطعن السير ، فإن إسدال الحمار من فوق
يعشى العيون . ويعسر الرؤية . ومن ثم فنحن نرى الآية لا نص فيها
على تغطية الوجوه !.

ولاشك أن بعض النساء في الجاهلية ، وعلى عهد الإسلام كنّ
يغطين أحيانا وجوههن مع بقاء العيون دون غطاء ، وهذا العمل كان
من العادات لا من العبادات ، فلا عبادة إلا بنص .

٩ - ويدل على ما ذكرنا : أن امرأة جاءت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -
يقال لها « أم خلاد » وهي متنقبة تسأل عن ابنها الذي قتل في إحدى
الغزوات فقال لها بعض أصحاب النبي : جئت تسألين عن ابنك وأنت

متنقبة ؟ فقالت المرأة الصالحة : إن أرزأ ابني فلم أرزأ حياتي .. !! .
واستغرب الأصحاب لتنقب المرأة دليل على أن النقاب لم يكن عبادة ! .

١٠ - قد يقال : إن ماروى عن عائشة يؤكد أن النقاب تقليد إسلامي ، فقد قالت : « كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات ، فإذا جازوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزونا كشفناه » ونجيب بأن هذا الحديث ضعيف من ناحية السند ، شاذ من ناحية المتن ، فلا احتجاج به ..

والغريب أن هذا الحديث المردود يروج له دعاة النقاب مع أنهم يردون حديثا خيرا منه حالا وهو حديث عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه » .

ونحن نعرف أن الحديث مرسل ، ولكن الحديث قوته روايات أخرى ، وهو أقوى من الحديث الذي سبقه .

١١ - وأدل على ذلك السفور المباح : مارواه لنا مسلم أن سبيعة بنت الحارث تزلت من زوجها وكانت حاملا ، فلما لبثت أياما حتى وضعت ، فأصلحت نفسها ، وتجملت للخطاب ! فدخل عليها أبو السنابل أحد الصحابة - وقال لها : مالى أراك متجملة ؟ لعلك تريدان الزواج ، إنك والله ماتتزوجين إلا بعد أربعة أشهر وعشرة أيام ..

قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وسألته عن ذلك فأفثنى بأتى قد حللت حين وضعت حملى ! وأمرنى بالتزوج إن بدا لى ...
كانت المرأة مكحولة العين مخضوبة الكف ، وأبو السنابل ليس من

محارمها الذين يطلعون بحكم القرابة على زينتها ، والملابسات كلها تشير إلى بيثة يشيع فيها السفور ١.

وقد وقع ذلك بعد حجة الوداع . فلا مكان لنسخ حكم أو إلغاء تشريع .. وأعرف أن هناك من ينكر كل ما قلناه هنا . فبعض المتحدثين في الإسلام أشد تطيرا من ابن الرومي ! وهم ينظرون إلى فضائل الدنيا والآخرة من خلال مضاعفة الحجب والعوائق على الغريزة الجنسية ..

ويعلم الله إنى - مع اعتيادي برأى - أكره الخلاف والشذوذ . وأحب السير مع الجماعة ، وأنزل عن وجهة نظرى التى أقنع بها بغية الإبقاء على وحدة الأمة ..

فهل ما قلته رأى انفردت به ؟

كلا كلا إنه رأى الفقهاء الأربعة الكبار . ورأى أئمة التفسير البارزين .. إن الشاغبين على سفور الوجه يظاهرون رأيا مرجوحا ، ويتصرفون فى قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحى والثقافى والاجتماعى لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبى والعلمى .

إن من علماء المذاهب الأربعة من يرى أن وجه المرأة ليس بعورة ، وأثبت هنا نقولا عن كبار المفسرين من أتباع هذه المذاهب : قال أبو بكر الجصاص - وهو حنفى - فى تفسير قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ... » (٢٧) .

قال أصحابنا : المراد : الوجه والكفان . لأن الكحل زينة الوجه . والخضاب والخاتم زينة الكف . فإذا أبيع النظر إلى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة إباحة النظر إلى الوجه والكفين

ويقول القرطبي - وهو مالكي - « لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة . وذلك في الصلاة والحج . فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما ... »

ويقول الخازن - وهو شافعي - مفسرا الاستثناء في الآية « قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي : الوجه والكفان » .

ويقول ابن كثير - وهو سلفي - « ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير مظهر منها بالوجه والكفين . وهذا هو المشهور عند الجمهور .. »

وقال ابن قدامة في « المغني » - وهو مرجع حنبلي - : المرأة كلها عورة إلا الوجه ، وفي الكفين روايتان !!

ونختم برأى ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير « أولى الأقوال في ذلك بالصواب من قال - في الاستثناء المذكور عن زينة المرأة المباحة - عنى بذلك الوجه والكفين . ويدخل الكحل والحاتم والسوار والخضاب .. وإنما قلنا ذلك أقوى الأقوال . لأن الإجماع على أن كل مصل يستر عورته في الصلاة وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في الصلاة . وأن تستر ماعدا ذلك من بدننها ، وما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره ... » .

والمذهب الحنفي يضم ظهور القدمين إلى الوجه والكفين . منعا للحرص .

وبعد هذا السرد نسارع إلى التنبيه بأن المجتمع الإسلامي بما شرع الله له من آداب اللباس والسلوك العام هو شيء آخر غير المجتمع الأوربي - بشقيه الصليبي والشيوعي - فإن هذا المجتمع أدنى إلى الفكر المادي البحت وأقرب إلى الإباحة الحيوانية المسعورة ..

إن الملابس هناك تفصل للإثارة لا للستر . والتزين للشارع لا للبيت . والاختلاط لا يعرف التصون أو تقوى الله ، والخلوة ميسورة لمن شاء ، والقانون

لا يرى الزنا جريمة ما دام بالنزاع !! وتكاد الأسر تكون حبرا على ورق ...
إن الإسلام شيء آخر مغاير كل المغايرة لهذا الاتجاه الطائش الكفور ، فهل
أحسنًا نحن بناء المجتمع القائم على حدود الله ؟.

إننا قدمنا للإسلام صوراً تثير الاشتزاز وفي خطاب لأحد الدعاة المشاهير
قال : إن المرأة تخرج من بيتها للزوج أو للقبر ! ثم ذكر حديثنا (٢٨) : إن امرأة
مرض أبوها مرض الموت فاستأذنت زوجها لتعوده فأبى عليها ! فلما مات
استأذنته أن تشهد الوفاة وتكون مع الأهل عند خروج الجنازة فأبى .. قال
الخطيب : فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها : إن الله غفر لأبيك لأنك أطعت
زوجك !! .

أكذلك يعرض ديننا ؟ سجننا للمرأة تقطع فيه ما أمر الله به أن يوصل ؟ .
وجاءتني رسالة من طالبة منعها أبوها من الالتحاق بالجامعة . قالت : إن
أبانا يقول لي ولأخواتي البنات : « إن الله دَفَنَكُنَّ أحياء . فلا أتركن لما تردن
من خروج » !

هذا فهم الأب الأحق لآية « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية
الأولى .. » (٢٩) .

(٢٨) نص الحديث كما أخرجه عبد الله بن حميد عن ثابت عن أنس « إن امرأة كانت تحت رجل
مرض أبوها فأتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله إن أبي مريض .
وزوجي يأبى أن يأذن لي أن أمرضه ! فقال لها النبي : أطعبي روحك ! فأتت أبوها .
فاستأذنت روحها أن تغسل عليه فأبى روحها أن يأذن لها في الصلاة ! فسألت النبي فقال
لها : أطعبي روحك ! فأطاعت روحها ولم تغسل على أبيها . فقال لها النبي - صلى الله عليه
وسلم - : قد غفر الله لأبيك بطواعيتك لزوجك .. !!

والحديث المذكور لا يعرفه رواه الصحاح . وهو يقطع ما أمر الله به أن يوصل ! ويرخص
لها حق الوالد . وهذه الآية تخرج المرأة من البيت أبداً . وهو هدف بكمرة الإسلام . وفي
الحديث الصحيح : « إن الله أذن لكن أن تخرجن في حوائجكم »

(٢٩) الأحزاب : ٣٣

المرأة والأسرة والوظائف العامة

أكره البيوت الخالية من ربانها ! إن ربة البيت روح ينفث الهدوء والمودة في جنباته ويعين على تكوين إنسان سوى طيب وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة ..

وإلى جانب هذه الحقيقة فإن أكره وأد البت طفلة . ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوة الخير لأمتها وأهلها فكيف نوفق بين الأمرين ؟
لنتفق أولاً على أن احتقار الأنوثة جريمة . وكذلك دفعها إلى الطرق لإجابة الحيوان الرابض في دماء بعض الناس .

والدين الصحيح يأبى تقاليد أمم نجس النساء . وتضيق عليهن الحنائق . وتضنّ عليهن بشئ الحقوق والواجبات . كما يأبى تقاليد أمم أخرى جعلت الأعراض كلاً مباحاً . وأهملت شرائع الله كلها عندما تركت الغرائز الدنيا تتنفس كيف تشاء ..

يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه . بيد أن الضمانات مطلوبة حفظ مستقبل الأسرة ومطلوب أيضاً توفير جو من التقى والعفاف تؤدي فيه المرأة ما قد تكلف به من عمل

إذا كان هناك مائة ألف طبيب أو مائة ألف مدرس فلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء والمهم في المجتمع المسلم قيام الآداب التي أوصت بها الشريعة . وصانت بها حدود الله . فلا تخرج ولا خلاعة . ولا مكان لاختلاط ماجن هابط . ولا مكان خلوة بأجنبي . تلك حدود الله فلا تعتدوها

ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون» .. (٣٠) .

على أن الأساس الذى ينبغى أن ترتبط به أو نظل قريبين منه هو البيت .
إننى أشعر بقلق من ترك الأولاد للخدم أو حتى لدور الحضانة .

إن أنفاس الأم عميقة الآثار فى إنصاج الفضائل وحماية النشء .

ويجب أن نبحث عن ألف وسيلة لتقريب المرأة من وظيفتها الأولى وهذا
ميسور لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح . وتركنا الانحراف والغلو ..

أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة ، وأعرف طبيبات
ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله .

وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت فى الهزيمة المخزية التى نزلت بنا
وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا ، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية
لدينها

كما أن امرأة يهودية هى التى قادت قومها . وأذلت نفرا من الساسة العرب
لهم لحي وشوارب فى حرب الأيام الستة وفى حروب تالية .. !

وقد لاحظت فى الشمال الأفريقى وأقطار أخرى أن الراهبات وسيدات
متزوجات وغير متزوجات يخدمن التنصير بحماس وامتنعالية !

ولعلنا لا ننسى الطيبة التى بقيت فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وهى
تهدم على رؤوس أصحابها وتحملت أكل الموتى من الحيوانات والجثث . ثم
خرجت ببعض الأطفال العرب آخر الحصار لتستكمل معالجة عللهم فى إنجلترا ..

إن هناك نشاطا نسائيا عالميا فى ساحات شريفة رحبة لا يجوز أن ننساه لما
يقع فى ساحات أخرى من تبذل وإسفاف .

وقد ذكرنى الجهاد الدينى والاجتماعى الذى تقوم النساء غير المسلمات به فى

أرضنا أو وراء حدودنا . الجهاد الكبير الذى قامت به نساء السلف الأول فى
نصرة الإسلام .

لقد تحملن غربة الدين بشجاعة . وهاجرن وآوين عندما فرضت الهجرة
والإبواء . وأقمن الصلوات رائحات غاديات إلى المسجد النبوى سنين عددا .
وعندما احتاج الأمر إلى القتال قاتلن .

وقبل ذلك أسدين خدمات طبية - أعنّ فى المهام التى يحتاج إليها الجيش -
وقد ساء وضع المرأة فى القرون الأخيرة . وعرضت عليها الأمية والتخلف
الإنسانى العام ..

بل إننى أشعر بأن أحكاما قرآنية ثابتة أهملت كل الإهمال لأنها تتصل
بمصلحة المرأة . منها أنه قلما نالت امرأة ميراثا . وقلما استشيرت فى زواجها ! .
وبين كل مائة ألف طلاق يمكن أن يقع تمتيع مطلقة أما قوله تعالى
« وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين »^(٣١) فهو كلام للتلاوة .

والتطويح بالروجة لتزوة طارئة أمر عادى . أما قوله تعالى « وإن خفتم
شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها »^(٣٢) فحبر على
ورق ..

المرأة أنزل رتبة وأقل قيمة من أن ينعقد لأجلها مجلس صلح ! إن الرغبة
فى طردها لا يجوز أن تُقاوم ... !!

وقد نددت فى مكان آخر بأن خطيئة الرجل تغتفر أما خطأ المرأة فدمها ثمن
له !!!

وقد استغل الاستعمار العالمى فى غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج

(٣١) البقرة : ٢٤١

(٣٢) النساء : ٣٥

المنكور . وشنّ على تعاليم الإسلام حرباً ضارية ! كأن الإسلام المظلوم هو المسئول عن القوضى الضاربة بين أتباعه ...

والذى يثير الدهشة أن مدافعين عن الإسلام أو متحدثين باسمه وقفوا محامين عن هذه القوضى الموروثة . لأنهم - بغاوة رائعة - ظنوا أن الإسلام هو هذه القوضى ! والجنون فنون والجهالة فنون !! .

إن الأعمدة التى تقوم عليها العلاقات بين الرجال والنساء تبرز فى قوله تعالى : « لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » ^(٣٣) وقوله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ^(٣٤)

وقول الرسول الكريم : « النساء شقائق الرجال » .

وهناك أمور لم يجرّ فى الدين أمر بها أو نهى عنها ، فصارت من قبيل العفو الذى سكّ الشارع عنه ليتيح لنا حرية التصرف فيه سلماً وإيجاباً .

وليس لأحد أن يجعل رأيه هنا ديناً ، فهو رأى وحسب ! .

ولعل ذلك سرّ قول ابن حزم . إن الإسلام لم يحظر على امرأة تولى منصب ما ، حاشا الخلافة العظمى !

وسمعت من رد كلام ابن حزم بأنه مخالف لقوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ^(٣٥) فالآية تفيد - فى فهمه - أنه لا يجوز أن تكون المرأة رئيسة رجل فى أى عمل ! .

وهذا رد مرفوض والذى يقرأ بقية الآية الكريمة يدرك أن القوامة المذكورة هى للرجل فى بيته ، وداخل أسرته ..

(٣٥) النساء : ٣٤

(٣٣) آل عمران : ١٩٥ .

(٣٤) النحل : ٩٧

وعندما ولّى عمر قضاء الحسبة في سوق المدينة للشفاء . كانت حقوقها مطلقّة على أهل السوق رجالاً ونساء . تحلّ الحلال وتحرم الحرام وتقيم العداة وتمنع المخالفات

وإذا كانت للرجل زوجة طيبة في مستشفى فلا دخل له في عملها الفني . ولا سلطان له على وظيفتها في مستشفاهما

قد يقال : كلام ابن حزم منقوض بالحديث « خاب قوم ولّوا أمرهم امرأة » ..

وجعل أمور المسلمين إلى النساء يعرض الأمة للخيبة فينبغي ألاّ تسند إليهن وظيفة كبيرة ولا صغيرة ..

وابن حزم يرى الحديث مقصوداً على رياسة الدولة . أما ما دون ذلك فلا علاقة للحديث به ..

ونحن أن نلقى نظرة أعمق على الحديث الوارد . ولسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول أو رئيسات للحكومات ! إننا نعشق شيئاً واحداً . أن يرأس الدولة أو الحكومة أكفأ إنسان في الأمة ..

وقد تأملت في الحديث المروى في الموضوع . مع أنه صحيح سنداً ومقتناً . ولكن ما معناه ؟ .

عندما كانت فارس تنهاوى تحت مطارق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملكية مستبدة مشنومة .

الدين وثني ! والأسرة المالكة لا تعرف شورى . ولا تحترم رأياً مخالفاً . والعلاقات بين أفرادها بالغة السوء . قد يقتل الرجل أباه أو إخوته في سبيل مآربه . والشعب خانع منقاد

وكان في الإمكان . وقد انهزمت الجيوش الفارسية أمام الرومان الذين

أحرزوا نصرا مبيناً بعد هزيمة كبرى وأخذت مساحة الدولة تتقلص أن يتولى الأمر قائد عسكري يقف سبيل الهزائم . لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراث لفتاة لا تدرى شيئاً . فكان ذلك إيذاناً بأن الدولة كلها إلى ذهاب ..

في التعليق على هذا كله قال النبي الحكيم كلمته الصادقة . فكانت وصفاً للأوضاع كلها .

ولو أن الأمر في فارس شوري . وكانت المرأة الحاكمة تشبه « جولدا مائير » اليهودية التي حكمت إسرائيل . واستبقت دقة الشئون العسكرية في أيدي قادتها لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة ..

ولك أن تسأل : ماذا تعني ؟ وأجيب : بأن النبي - عليه الصلاة والسلام - قرأ على الناس في مكة سورة النمل . وقصّ عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ التي قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بحكمتها ودكايتها . ويستحيل أن يرسل حكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحى ! .

كانت بلقيس ذات ملك عريض . وصفه الهدهد بقوله : « إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » (٣٦) .

وقد دعاها سليمان إلى الإسلام . ونهاها عن الاستكبار والعناد . فلما تلقت كتابه . تروّت في الرد عليه . واستشارت رجال الدولة الذين سارعوا إلى مساندتها في أي قرار تتخذه . قائلين « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد . والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » (٣٧) .

ولم تغتر المرأة الواعية بقوتها ولا بطاعة قومها لها . بل قالت : نختبر سليمان هذا لنتعرف أهو جبار من طلاب السطوة والثروة أم هو نبي صاحب إيمان ودعوة ؟

(٣٧) النمل : ٣٣

(٣٦) النمل : ٢٣

ولما التقت سليمان بقيت على ذكائها واستنارة حكمها تدرس أحواله وما يريد وما يفعل ، فاستبان لها أنه نبيّ صالح ..

وتذكرت الكتاب الذى أرسله إليها : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم آلا تعلوا علىّ وأتوني مسلمين » (٣٨) ثم قررت طرح وثنيثها الأولى والدخول فى دين الله قائلة : « رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ... » (٣٩) .

هل خاب قوم ولوا أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس ؟ إن هذه المرأة أشرف من الرجل الذى دعتة ثمود لقتل الناقة ومراغمة نبيهم صالح ، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » (٤٠) .

ومرة أخرى أؤكد أنى لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة ، فإن الكلمة من النساء قلائل . وتكاد المصادفات هى التى تكشفهن . وكل ما أبغى ، هو تفسير حديث ، ورد فى الكتب . ومنع التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة . أو التى تفهم على غير وجهها ! ثم منع التناقض بين الحديث والواقع التاريخي .

إن انجلترا بلغت عصرها الذهبى أيام الملكة « فيكتوريا » ، وهى الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء ، وتعدّ فى قمة الازدهار الاقتصادى والاستقرار السياسى . فأين الحنية المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة ؟ .

وقد تحدثت فى مكان آخر عن الضربات القاصمة التى أصابت المسلمين فى القارة الهندية على يدى « انديرا غاندى » وكيف شطرت الكيان الإسلامى شطرين فحققت لقومها ما يصبون ! .

(٤٠) القمر : ٢٩ - ٣٢

(٣٨) النحل : ٣٠ - ٣١ .

(٣٩) النحل : ٤٤ .

على حين عاد المرشال ، يحيى خان يجرر أذيال الحية !! .

أما مصائب العرب التي لحقت بهم يوم قادت « جولدا مائير » قومها فحدث ولا حرج . قد نحتاج إلى جيل آخر لمحوها ! إن القصة ليست قصة أنوثة وذكرورة ! إنها قصة أخلاق ومواهب نفيسة ..

لقد أجرت انديرا انتخابات لترى أختارها قومها للحكم أم لا ؟ وسقطت في الانتخابات التي أجرتها بنفسها ! ثم عاد قومها فاختاروها من تلقاء أنفسهم دون شائبة إكراه !

أما المسلمون فكانهم متخصصون في تزوير الانتخابات للفوز بالحكم ومغائمه برغم أنوف الجماهير .

أى الفريقين أولى برعاية الله وتأييده والاستخلاف في أرضه ؟ ولماذا لا نذكر قول ابن تيمية : إن الله قد ينصر الدولة الكافرة - بعد لها - على الدولة المسلمة بما يقع فيها من مظالم ؟ .

ما دخل الذكورة والأنوثة هنا ؟ امرأة ذات دين خير من دى لحية كفور !!
والمسلمون الآن نحو خمس العالم . فكيف يعرضون دينهم على سائر الناس ؟
ليهتموا قبل أى شىء بأركان دينهم وعزائمه وغاياته العظمى ! أما ما سكت الإسلام عنه فليس هم أن يلزموا الناس فيه بشىء قد ألقوه هم أنفسهم من قبل !! .

إننا لستنا مكلفين بنقل تقاليد عبس وذيان إلى أمريكا وأستراليا . إننا مكلفون بنقل الإسلام وحسب !

والأهم تلتقى عند الشئون المهمة ! هب أن الانكليز يلزمون الجانب الأيسر من الطريق على عكس غيرهم من أهل أوروبا . إن ذلك لا تأثير له في حلف الأطلسي ولا في دستور الأسرة الأوربية ! .

وإذا كان الفقهاء المسلمون قد اختلفت وجهات نظرهم في تقرير حكم ما ، فإنه يجب علينا أن نختار للناس أقرب الأحكام إلى تقاليدهم ...

والمرأة في أوروبا تباشر زواجها بنفسها . ولها شخصيتها التي لا تتنازل عنها . وليست مهمتنا أن نفرض على الأوربيين مع أركان الإسلام رأى مالك أو ابن حنبل إذا كان رأى أبى حنيفة ^(٤١) أقرب إلى مشاربهم فإن هذا تنطع أو صدّ عن سبيل الله ..

وإذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمة أو قاضية أو وزيرة أو سفيرة ، فلهم ماشاءوا . ولدينا وجهات نظر فقهية تجيز ذلك كله . فلم الإكراه على رأى ما ؟ . إن من لافقه لهم يجب أن يخلقوا أفواههم لكلا يسيئوا إلى الإسلام بحديث لم يفهموه أو فهموه وكان ظاهر القرآن ضده ...

والجماعة من شعائر الإسلام ، ومنذ قام المجتمع الإسلامى والمسجد محور نشاطه وملقى أبنائه ، تتصافح فيه الوجوه والأيدى ، وتتلاقى فيه على الحب والتعاون . ويقف المؤمنون في صفوف مرصوصة بين يدي الله تبارك وتعالى قدما لقدم وكفنا لكف . يزينهم الخشوع لسماع القرآن ، والتسبيح والتحميد خلال الركوع والسجود ...

(٤١) قال الأحاف : إن القرآن أسد عقد الزواج إلى المرأة وقال : « حتى تنكح روحا غيره » (القرة ٢٣٠) وقال : « فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف » (القرة ٢٣٤) فعقدها انباشر صحيح . وإذا اعترض أبو نؤى الفصاء الحكم في الزواج وردوا حديث « أيما امرأة انكحت نفسها فنكاحها باطل باطل باطل » لأنه يخالف ظاهر القرآن .

رفض أحد القراء مذهب أبى حنيفة . وقال : « إن لفظة « نكح روحا غيره » حقيقة في الوطأ وحده !! وهذا اعتراض فاحش مدهش .

هل النكاح المنشود يقع عن رضى أو عن زواج ؟ لا أظن عاقلا برعه أن الرضى يخلل المرأة تزوجها الأول ، فلم يبق إلا أن كلمة « تنكح » حقيقة في العقد والوطء معا ، ولكن التعصب المذهبي يجر أصحابه إلى الغرائب !!

وأثر الصلاة الفكرى والخلق عميق . فإن القرآن المتلوى يرفع المستوى ويورث التقوى . واللقاء المتكرر يصون العلاقات الخاصة والعامة . ويجعل الأمة تواجه يومها وغدها وهى متعارفة لامتناكرة .

وتم أمر آخر . أن المبطلين أقاموا فى هذه الدنيا جوا من المادية والأطماع والمآرب الصغيرة يملأ أنديتهم . ويسود طرقهم . ويصنع تقاليدهم . ويدعم بعدهم عن الله وكفرهم بآياته . فيجب أن يكون للمؤمنين جوائى يعلو فيه ذكر الله . وتسمع فيه قضايا الحق . ويتحول فيه الإيمان بالغيب إلى حقائق مأنوسة لاختيالات مستوحشة !

من ثم كانت الجماعة من معالم الدين ! وبعض الفقهاء يرى الجماعة فرضا للصلوات الخمس لا يسقطه إلا عذر صحيح . ولكن الذى عليه جمهور الأمة أن الجماعة سنة مؤكدة ..

فهل هى سنة مؤكدة للرجال والنساء على السواء ؟ كذلك يقول الظاهرية !! ولكن الأمر يحتاج إلى تأمل ..

فقد صحَّ فى السنة أن المرأة راعية فى بيتها وهى مسئولة عن رعيته ! ولا ريب أن شئون الأولاد خصوصا الرضع . وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله . كل ذلك يحول دون انتظام المرأة فى الجماعات الخمس .

ولذلك نرى أن حضور الجماعات مطلوب منها بعد أن تفرغ من وظائف بيتها . فإذا قامت بما عليها فلا يجوز لرجلها أن يمنعها من الذهاب إلى المسجد وقد جاء فى الحديث « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » .

ونحن موقنون بأن النبي - عليه الصلاة والسلام - جعل أحد أبواب المسجد خاصا بالنساء . وأنه أقامهن فى الصفوف المؤخرة من المسجد - وذلك أصون لهن فى الركوع والسجود - وأنه زجر الرجال الذين يقتربون من صفوفهن . كما

زجر النساء اللاتي يتقدمن قريبا من صفوف الرجال ...

وقد بقيت صفوف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي وأيام الخلافة الراشدة . لم يشغب عليها شاغب ، تبدأ مع الفجر وتنتهي عند العشاء . وربما قامت للنساء جماعات حاشدة لصلاة التراويح في رمضان . ومعروف أن اشتراكهن في صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام . بيد أن الازدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول والتلاشي فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة . كي يبقين على أميتهن الأولى !!

الحساب من تعود هذه الجاهلية ؟

وعندما يفرض على نصف الأمة الجهل والعمى فكيف تنشأ الأجيال المقبلة ؟

ثم شاع حديث آخر يائي على النساء حضور الجماعات كلها . بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة في بيتها أن تختار المكان الموحش المعزول ، فصلاتها في سرداب أفضل من صلاتها في الغرفة . وصلاتها في الظلمة أفضل من صلاتها في الضوء !! .

ورأى هذا الحديث يطّوح وراء ظهره بالسنن العملية المتواترة عن صاحب الرسالة .

وينظر إلى المرأة المصلية وكأنها أذى يجب حصره في أضيق نطاق وأبعده ، ولنقرأ هذا الحديث الغريب كما ذكره ابن خزيمة وغيره .

« عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت :

يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال : قد علمت أنك تحبين الصلاة

معي ! وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك . وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك . وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك . وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي » . قال الراوى : فأمرت فبنى لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه ، وكانت تصلى فيه حتى لقيت الله عز وجل !! .

والبيت في الحديث هو غرفة النوم . والحجرة غرفة الجلوس . والصلاة في الأولى أفضل من الصلاة في الأخرى ! .

والصلاة في غرفة الجلوس أفضل من الصلاة في عرصة الدار . وهي في عرصة الدار أفضل من الصلاة في مسجد الحي

وكلما ضاق المكان وبعد واستوحش كانت الصلاة فيه أفضل !

ويجعل ابن خزيمة عنوان الباب الذي ذكر فيه هذه القضايا « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في مسجد رسول الله . وأن قول النبي - عليه الصلاة والسلام « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد » إنما أراد به صلاة الرجال دون صلاة النساء !! .

والسؤال السريع إن كان هذا الكلام صحيحا فلماذا ترك النبي النساء يشهدن الجماعات معه طوال عشر سنين من الفجر إلى العشاء ؟ ولماذا خص أحد أبواب المسجد بدخولهن ؟ ولماذا لم ينصحهن بالبقاء في البيوت بدل هذه المعاناة الباطلة ؟ .

ولماذا قصر صلاة الفجر على سورتين صغيرتين عندما سمع بكاء رضيع مع أمه حتى لا يشتغل قلبها ؟

ولماذا قال : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ؟ ولماذا استبقت الخلافة الراشدة صفوف النساء في المساجد بعد وفاة الرسول الكريم ؟ .

إن ابن حزم أراح نفسه وأراح غيره عندما كذب أحاديث منع النساء من

الصلاة في المساجد . وعدّها من الباطل !

وعلماء المصطلح يقولون : يعتبر الحديث شاذّا إذا كان الثقة قد خالف به الأوثق .

فإذا كان يخالف ليس ثقة بل ضعيفا . فحديثه متروك أو منكرا !

ولم ينحى في أحد الصحيحين ميفيد منع النساء من الصلاة في المساجد فهذه الأحاديث مردودة كلها . فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة والمشهورة ؟ إن حديثه يستبعد ابتداء ..

وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة . ولا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة وقد يقبل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت متبرجة . فإن الذهاب إلى المساجد ليس استعراضا للزيّنات . وبعثرة للفتن ! إنه سعى لمرضاة الله . وغرس للتقوى ..

وحجز النساء عن هذا الشر هو بتنفيذ وصاة رسول الله « . يخرجن ثقلات » أى فى ملابس عادية وهيئة طبيعية لا تعطر ولا تبختر أما إصدار حكم عام بتحريم المساجد على النساء فهو مسلك لا صلة له بالإسلام ..

وإن الفقهاء ليرتاعون لما يرويه المحدثون مخالفا لما ثبت لديهم !

انظر مارواه المنذرى تحت عنوان « الزهيب من ترك التسمية على الوضوء عمدا » ، قال الإمام أبو بكر بن أبي شيبة رحمه الله : ثبت لدينا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا وضوء لمن لم يسم الله ... » .

وعن أبي هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » !

وفقهاء المذاهب على أن التسمية سنة لا فريضة . واحتجوا بما رواه الدارقطني والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً « من توضأ وذكر اسم الله عليه كان طهوراً لجميع بدنه . ومن توضأ ولم يذكر اسم الله عليه كان طهوراً لأعضاء وضوئه » قال المنذرى : « في الباب أحاديث كثيرة لا يسع شيء منها عن مقال . »

وقد ذهب الجمهور إلى أن التسمية على الوضوء سنة . وذهب الحنابلة والظاهرية إلى أنها فريضة . والأحاديث المروية بالسلب أو الإيجاب موضع أخذ ورد ولا داعي للتهويل في الأمر...

ومن الخير أن نعلم أن الفرض لا يثبت إلا بدليل قطعي وأن التحريم لا يثبت إلا بدليل قطعي . وأن الأدلة الظنية لها دلالات أقل من ذلك ..

والذي يدخل ميدان التدين وبضاعته في الحديث مزجاة كالذي يدخل السوق ومعه نقود مزيفة . لا يلومن إلا نفسه إذا أخذته الشرطة مكبل اليدين .. !

ونريد من الجماعات العاملة للإسلام أن تكون يقظة فلا تنخدع بالآثار الواهية والأحاديث الموضوعة كما نريد منها أن تعرف المعاني الصحيحة لما صح من نقول ..

وأئمة الفقه هم أرباب تلك الصناعة .. !

حَوْلَ شَهَادَةِ الْمَرْأَةِ ..

ومعروف أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل . وقد علل القرآن الكريم لذلك بأن المرأة قد تنسى أو تحار أو يشتبه عليها وجه الحق . وعندما تكون معها امرأة أخرى فسوف يتعاونان على الإدلاء بالحقيقة كاملة .

وقد بحثت في هذا الموضوع فأدركت أن المرأة في عاداتها الشهرية تكون شبه مريضة . وأن انحراف مزاجها واضطراب أجهزتها الحيوية يصيبها ببعض الارتباك . والتثبت في أداء الشهادات واجب ..

ذاك سرّ قوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء . أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » (٤٢) .

وكان يجب أن يقف الأمر عند هذا الحد لكن تياراً نشأ في الفكر الديني يستبعد شهادة المرأة استبعاداً تاماً في أهم ميادين التقاضي . ! وهو ميدان القصاص والحدود أي فيما يتصل بالدماء والأعراض ..

وإذا كان اللصوص يسرقون البيوت ليلاً أو نهاراً فما معنى رفض شهادة المرأة في حد السرقة ؟ وإذا كان العدوان على النفس والأطراف يقع كثيراً بمشهد من النساء فما معنى أن ترى المرأة مصرع آلهة أو أقرب الناس إليها ثم ترفض شهادتها ؟

ولماذا لم يلتزم نصاب الشهادة كما ذكره القرآن الكريم ؟.

إن ابن حزم في تمحيصه للآثار المروية يؤكد أن رفض شهادة النساء في الحدود والقصاص لا يوجد له أصل في السنة النبوية .

ولست أحب أن أوهن ديني أمام القوانين العالمية بموقف لا يستند استنادا قويا إلى النصوص القاطعة . وإذا كان المسلمون الآن أكثر من مليار نفس فما معنى التطويح بكرامة خمسمائة مليون امرأة لقول أحد من الناس ؟.

المأساة أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا وآرائنا إلى عقائد الإسلام وشرائعه لتكون دينا مع الدين . وهديا من لدن رب العالمين . وبذلك نصدّ عن سبيل الله .. !

وأذكر هنا قصة الناقة التي عرضها صاحبها بعشرة دراهم . واشترط أن تباع قلاذتها معها بألف درهم ! فكان الناس يقولون : ما أرخص الناقة لولا هذه القلاذة الملعونة .. !

وأقول كذلك : ما أيسر الإسلام وأيسر أركانه . وما أصدق عقائده وشرائعه . لولا ما أضافه أتباعه من عند أنفسهم . واشترطوا على الناس أن يأخذوا به ويدخلوا فيه .. !

ولنتنقل كلام ابن حزم في موضوع الشهادة من كتابه « المحلى » ..

قال : « ولا يجوز أن يقبل في الزنا أقل من أربعة رجال عدول مسلمين أو مكان كل رجل امرأتان مسلمتان عدلتان فيكون ذلك ثلاثة رجال وامرأتين أو رجلين وأربع نسوة أو رجلا واحدا وست نسوة أو ثمان نسوة فقط .

ولا يقبل في سائر الحقوق كلها من الحدود والدماء وما فيه القصاص . والنكاح والطلاق والرجعة والأموال إلا رجلا مسلما عدلان أو رجل وامرأتان كذلك أو أربع نسوة .

قال : « وصحّ عن شريح أنه أجاز شهادة امرأتين في عتاقة مع رجل .

وصحّ عن الشعبي قبول شهادة رجل وامرأتين في الطلاق وجراح الخطأ ولم
يجز شهادة النساء في جراح عمد ولا في حدّ .

وصحّ عن إياس بن معاوية قبول امرأتين في الطلاق .

وعن محمد بن سيرين أن شريحا أجاز شهادة أربع نسوة على رجل في
صداق امرأة .

وعن الزبير بن الحزيت عن لبيد قال : إن سكرانا طلق امرأته ثلاثا فشهد
عليه أربع نسوة فرفع إلى عمر بن الخطاب فأجاز شهادة النسوة وفرّق بين
الزوجين .

وعن سفيان بن عيينة عن أبي طلق عن امرأة أن امرأة أوطأت صبيا فقتلته
فشهد عليها أربع نسوة ، فأجاز على بن أبي طالب شهادتهن .

وعن عطاء قال : أجاز عمر بن الخطاب شهادة النساء مع الرجال في
الطلاق والنكاح . وفي رواية أخرى عن عطاء بن أبي رباح قال : تجوز شهادة
النساء مع الرجال في كل شيء .

قال ابن حزم عن عبد الله بن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أنه قال في حديث : فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل .

أما ما جاء عن الزهري الذي قال : مضت السنة من النبي - صلى الله عليه وسلم -
ومن أبي بكر وعمر أنه لا تجوز شهادة النساء في الطلاق ولا في النكاح
ولا في الحدود قبلية : لأنه منقطع من طريق إسماعيل بن عياش وهو ضعيف
عن الحجاج بن أرطاة وهو هالك .

وأما الرواية عن عمر : لو فتحنا هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرّق بين رجل

وامراته إلا فعلت ذلك فهو عن الحارث الغنوي وهو مجهول . ثم إن عمر لا يقول هذا الكلام .

انتقبت هذه السطور من عدة صفحات تضمنت آراء فيها الخطأ والصواب ، ومرويات فيها المقبول والمردود ، ورأيت - حتى أستنقذ نفسي والناس من هذه اللجة - أن أعنصم بالمتواتر من كتاب الله ، والمشتهر من السنة النبوية ! وأن أقرر قبول شهادة المرأة في كل شيء وفق النصاب الثابت في ديننا .

ومن حق كل مسلم أن يتجاوز ما وراء ذلك غير منهم ولا مربب
ولى أن أتساءل : هل من مصلحة الأمن العام إهدار شهادة المرأة في قضايا يقع ألوف منها بمحضر النساء ؟ وهل من مصلحة الفقه والأثر ترجيح مذهب يسىء إلى الإسلام أكثر مما يحسن ؟..

ثم نختم هذا الباب بقول ابن حزم : « وجائز أن تلى المرأة الحكم وهو قول أبي حنيفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولى الشفاء - امرأة من قومه - السوق ، فإن قيل : قد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » قلنا : إنما قال ذلك رسول الله في الأمر العام الذى هو الخلافة .

برهان ذلك : قوله عليه الصلاة والسلام : « المرأة راعية على مال زوجها وهى مسئولة عن رعيتها » .

وقد أجاز المالكيون أن تكون وصية ووكيلة^(١٣) ، ولم يأت نص من منعها أن تلى بعض الأمور ! وبالله تعالى التوفيق ... » .

(١٣) وأجاز الأحناف توكيلها بالخصومة « الهامة »

الفناء

خبر الواحد وقيمته - ابن حزم يناقش ماورد في تحريم الفناء
من أخبار - الترويع عن النفس بالمباحات - نماذج للفناء
الشريف - فساد أغلب البيئات الفنية - التطرف في التحريم
نزعة غير إسلامية .

محمد صاحب الرسالة الخاتمة أحب البشر إلينا وأجلهم نعمًا لدينا ! .
وإذا حُسِبَتْ أقدار الناس . وفق جهادهم لإحقاق الحق وإبطال
الباطل . فمحمد أصدقهم قبالاً وأهداهم سبيلاً وأقدرهم - بالخلق الجميل .
والصبر الطويل - على إبراز الحقيقة وحمايتها وتفتيح الجفون المغلقة على سناها ..
لقد أنصف الوحي الأنهى كله . وصانه مما عراه خلال القرون الأولى .
وعرفنا بالله الأحد الصمد . وخطَّ لنا سبيل رضاه في وجه سلطات شرسة
وكهانات خرفة وجواهر توارثت الخبال .

ولم يزل بصابر اللبالي ويكافح الطغاة حتى بلغ رسالة الهدى والخير ، فله في
اعتناقنا صنائع المعروف لا ننساها له أبداً ، وإن جهل الجاهلون وجحد
الجاحدون ...

إن نبوة محمد تلقى في هذا العصر تحدياً نلقاه بالازدراء تشارك فيه
الصهيونية والصليبية والشيعية يحاولون جميعاً غمط حقه ونجس تراثه ! ولكننا
ننظر إلى ما تقدّم هذه النحل للدنيا من عوج وشر وما يقدّمه محمد للدنيا - في
كتابه وسنته - من استقامة وخير . ونعلم أن المستقبل لنا . وأن يوم الإسلام
قادم « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .
والمهم أن نعرف رسالتنا بصدق . وأن نطبقها على أنفسنا بوفاء . وأن
نبلغها إلى الناس سماوية لا يعلق بها من أكدار الأرض قذى ينفر منها أصحاب
الفطر السليمة ...

نحن نعلم أن الأنبياء كلهم مبلغون عن الله ، ولا نعجب عندما نقرأ قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله .. » وقوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ... » .

فللرسول علينا حق السمع والطاعة . ونحن ندرس سيرته لنهيج نهجه ونقتني أثره ونقتدى به فيما فعل وترك .

ولا خلاف بين المسلمين في أن محمداً أسوتهم الحسنة وإمامهم الأول والصورة العملية الوسيمة لما في القرآن الكريم من هدى ونور .

وعندما نقرر مصادر الأحكام فالإجماع منعقد على أن الأصلين الأولين هما الكتاب والسنة ... والكتاب لا ترقى إليه شبهة فهو متواتر حرفاً حرفاً ، ونحن تؤمن به جملة وتفصيلاً ..

وما بلغ من السنة درجة اليقين فسيبله سبيل القرآن الكريم لا يزيغ عنه إلا هالك ! ومن علم على وجه اليقين أن رسول الله أصدر أمراً ثم قرر رفضه فقد انسلخ عن الملة ، لا خلاف في هذا .

وإذا وقع لفظ حول حديث ما فمداره : هل قال الرسول هذا ؟ أم لم يقله .. ! فالكلام في صحة النسبة وفي ضمانات هذه الصحة لا في جواز التقديم بين يدي الله ورسوله ، أو أخذ ما يعجب وترك ما لا يعجب .. !! .

وقد قرأت البحث الذي كتبه الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوى في أسلوب التعامل مع السنة^(*) فوجدته أوفى على الغاية وجمع أنفاس ما يقال في هذه القضية . والحق أن الشيخ يوسف من العلماء الذين يظهرون بقله في تاريخنا ولهم رسوخ في الفقه والأثر . وبصر بالنص الإلهي وواقع الحياة . بل هو في ميدانه إمام من الثقات العدول ، والدعاة الأماناء ..

وأنا أطمع في أن أضيف إلى جهده أشياء ليست استدراكاً عليه ، وإنما

(*) يصدر قريباً عن المعهد العالي للفكر الإسلامي .

هى إضافات توضح مواقف جمهرة المسلمين من السنة الشريفة ، عندما يتركون حديثا من الأحاديث للمحظ آخر من ملاحظ الشريعة رأوه أجدر بالترجيح ..

وقبل أن أشرح ما عندى أحب أن أقول : إننى مع الجماعة الكبرى أستظل بلوائها وأنتظم فى صفوفها وأكره الشذوذ وأرفض الخروج على ما ارتضاه جمهور الأمة ..

إننى أعرف العداوات الرهيبة التى تواجهها أمتنا فى هذه السنوات المعجاف . وأريد ان تبقى جبهتنا متحدة لصون بيضتنا وكبت عدونا .

لقد تخرجت فى الأزهر من نصف قرن ، ومكثت فى الدراسة بضع عشرة سنة لم أعرف خلالها إلا أن حديث الآحاد يفيد الظن العلمى ، وأنه دليل على الحكم الشرعى ما لم يكن هناك دليل أقوى منه ، والدليل الأقوى قد يؤخذ من دلالات القرآن القرية والبعيدة ، أو من السنة المتواترة ، أو من عمل أهل المدينة ...

والقول بأن حديث الآحاد يفيد اليقين كما يفيد المتواتر ضرب من المجازفة المرفوضة عقلا ونقلا ومن هنا فقد ألقنا قبول أحكام شتى تخالف المتبادر من بعض المرويات الصحيحة .

كنت وأنا أدرس الفقه على المذهب الحنفى أسمع المالكين يقولون : من أفطر فى رمضان ناسيا فعليه القضاء . أو يقولون : الشك ينقض الوضوء . وهذا يخالف أحكاما مقرررة عندنا تعتمد على أحاديث صحيحة ..

وكنا لا نقرأ حرفا وراء الإمام فى الصلوات الخمس ، أو نترك البسملة أحيانا لما استقر عندنا من مرويات ، على حين كان الشافعيون يصرون على تلاوة الفاتحة ويرون البسملة جزءا منها ..

ولم تكن نشعر بغضاضة من هذا الاختلاف . وإذا ثار جدل علمى ركد بعد قليل غير مخلف غضبا ولا أسفا ..

وفي المذهب الحنفي يعرف الفرض بأنه ما ثبت بدليل قطعي ، أما الواجب - وهو دون الفرض - فما ثبت بدليل ظني ، ويعني ذلك أن حديث الآحاد لا يثبت به فرض ، كما أنه لا يقع به تحريم ، بل يفيد الكراهية وحسب ...

وعندما توغلنا في دراسة القرآن الكريم وجدنا المفسرين المحققين يحنون إلى ذلك المنهج . يقول صاحب المنار : « التفرقة بين ما ثبت بنص القرآن من الأحكام . وما ثبت بروايات الآحاد وأقيسة الفقهاء ضرورية ، فإن من يجحد ما جاء في القرآن الكريم يحكم بكفره ، ومن يجحد غيره ينظر في عذره ! فما من إمام مجتهد إلا وقد قال أقوالاً مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة لأسباب يعذر بها ، وتبعه الناس على ذلك ..

ولا يعدّ أحد ذلك عليهم خروجاً من الدين حتى من لا عذر له في التقليد .. » .

ثم نقل صاحب المنار عن ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين قوله : « الربا نوعان جلّيّ وخفّيّ . فالجلّيّ حرم لما فيه من الضرر العظيم والخفّيّ حرم لأنه ذريعة إلى الجلّيّ .. » .

ويرى ابن القيم أن ربا الفضل المعروف في حديث الأصناف الستة إنما حرم من باب سدّ الذرائع ، والواقع أن ربا الفضل لا يكاد يوجد في الحياة العملية ! فما معنى أن تباع جراماً من ذهب بجرام من ذهب مثلاً بمثل ، هاء وهاء ؟ .

المقصود إغلاق الباب من بعيد على ربا النسيئة ... والحق أن الحديث المتفق عليه في تحريم التفاضل والإرجاء بين الأصناف الستة لا يفهم إلا في ضوء بيان ابن القيم ..

إن العقائد والأركان والمعالم الرئيسة لديننا تؤخذ مما نقل بالتواتر ، أو مما استفاضت شهرته من الصحاح أما الأحكام الفرعية فلا بأس عند تقريرها من

النظر في أحاديث الآحاد ، وقد بذل علماؤنا جهدا مقدورا مشكورا في ضبطها ، إنهم لم يهدروا نقل عدل ضابط ، بل أعطوه ما يستحق من اهتمام بيد أننا في ميدان الشهادة لا نحمي دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بشهادة رجل واحد مهما كانت جلالة . إننا نطلب شاهدين أو أربعا في الإثبات . ودين الله أهم من دنيا الناس ! .

ذلك ، وهناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها ، وقد شعرت بالغيظ والخرج وأنا أقرأ أن يهوديا وغدا سحر النبي عليه الصلاة والسلام وأعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدرها ابن حجر بستة شهور ! أكذلك تنال القمم ؟ .

قالوا : كما يستطيع سفيه أن يقذفه بحجر أو كما يستطيع مجرم أن يصيبه بخرج ! وهذا اعتذار مرفوض . فإن السحر تسلط على الإرادة والفكر وهذا مستحيل . لاسيما والوسيلة تسليط أرواح شريرة ، أو بعض الجن .. على الجهاز العصبي للإنسان ، فيوقعه في اضطراب وحيرة ...

وقد سرني أن الشيخ محمد عبده رفض هذا الحديث ، وساءني أن الرجل الضخم أنهم في دينه لهذا الموقف المعظم لقدرة الرسول !! .

وسمعت الشيخ محمد أحمد عثمان رحمه الله - وكان وكيلا للجمعية الشرعية في مصر - يقول : إن في سند حديث السحر مقالا . فقلت له : لست من علماء هذا الفن ! وكل ما لاحظت على السند أنه يجعل نزول المعوذتين في المدينة . وهما في « علوم القرآن » وعند كتاب المصاحف نزلتا بمكة ...

إنني أطيل النظر في كتب السنة ، معتقد أن بها كنوزا ثمينة من تراث النبوة ، وأستهدى بفطرتي في تجنب الضعيف وقبول الصحيح ، وهي فطرة صقلتها التلاوة الدائمة لكتاب الله . والحب الصادق لهذا الوحي المبارك . والدراسة الحسنة لمناهج الفقهاء الأربعة الكبار ومن يليهم من أهل الذكر وقادة الفكر . ! .

ومن هنا ابتعدت عن أحاديث تركها أبو حنيفة ومالك وغيرهما ، وإن رواها المشتغلون يجمع الأحاديث .

لقد تركها الأئمة بتلطف وأدب ، وأمامي الآن تفسير المنار لقوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » بقول الشيخ رشيد : لم نر في الأحاديث الصحيحة ما هو أقرب إلى كلام الصوفية منه إلى كلام الله عز وجل إلا حديث « من عادى لي وليا فقد آذنته بحرب .. » !! .

وقد انفرد به البخارى وفي سنده كما في متنه غرابة ! قال الحافظ ابن رجب : هذا الحديث تفرد البخارى بإخراجه دون بقية أصحاب الكتب .

إلى أن قال : وهو من غرائب الصحيح ، تفرد به ابن كرامة عن خالد بن مخلد ، وليس في مسند أحمد ، مع أن خالدا هذا تكلم فيه الإمام أحمد وغيره وقالوا : له مناكير ! ثم قال : وقد روى من وجوه أخرى لا تخلو كلها من مقال ! وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد ، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناكير وفي الميزان للذهبي : يكتب حديثه ولا يحتج به ! الخ ..

قال الشيخ رشيد : وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى - والحديث قدسى - ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به .. الخ الذى استدلوا به على الحلول والاتحاد وقد أوله العلماء ، وبينت أمثل تأويل له عند الكلام على حب الله تعالى ...

والإنصاف يقضى على بأنؤكد مكانة صحيح البخارى فهو بلا ريب أدق كتب السنة ، ومن الإنصاف كذلك توكيد احتواء كتب السنة على آلاف الأحاديث المقبولة ، بذل الأسلاف في تدوينها جهودا مضنية ، ولا تتم الإفادة منها إلا بتعاون الفقهاء ، والمحدثين جميعا على ضبط معانيها ومغازيها .

والمأساة التى نعانى منها ، ونخشى بلاءها على الصحو الإسلامية نجيء من قبل قوم يسمون أنفسهم « الأخوة أهل الحديث » نلحظ عليهم عيوباً ثلاثة :

اكترائهم بالمرويات الواهية ، وبناء العلالى فوقها .

ثم سوء فهمهم للصحيح وتعصبهم لما يفهمون من أخطاء .

ثم عجزهم عن إدراك الحكمة القرآنية ، ووقوفهم بعيدا عن محاور القرآن
وغاياته ...

وقد نستطرد فى الشكوى فنقول : إن من هؤلاء من يرفع خسيسته بالطعن
فى الأئمة الكبار ، ومن يوارى سوائه باللجاجة فى تكبير أحكام محدودة أو
تجسيم خلاف تافه ...

ولأكن صريحا فى توضيح ما أخافه . منذ أيام وقف بين الإسلاميين فى
الجزائر من يصيح بأعلى صوته :

إن المرأة فى الإسلام خلقت لكى تلد الرجال ! لا عمل لها إلا هذا ..

وهذه الصيحة تنطلق والغزو الثقافى الدينى والشيوعى يعد المرأة بالعلم
والكرامة واستكمال الشخصية والمشاركة فى إصلاح الأرض وغزو الفضاء !
قلت للإسلاميين وأنا كاسف البال : قفوا هذا الجحون قبل أن ترتدّ الجزائر
وتستولى عليها فرنسا مرة أخرى ..

هذا المتحدث المسكين باسم الإسلام لا يعرف إلا حديثا مكذوبا أن المرأة
لا ترى رجلا ولا يراها رجل وأنها خلقت ليفترشها فحل وحسب ! .

وهذا متحدث إسلامى آخر يرى أن خروج الرسول فى « بدر » يدل على
جواز أن تكون الحرب فى الإسلام هجومية ! بل يدل على أن الإسلام قام
بالسيف ! .

يقع هذا الفهم والمسلمون لا يقدرّون على التقاط أنفاسهم من وطأة
الهجوم عليهم !! لا يصنعون سنانا ولا يقدمون برهانا ... ولا أمضى فى هذه
الشكاة فالأمر يطول ..

من حق المهتمين بالأحاديث الضعيفة أن يذكروها بعيدا عن دائرة العقائد والأحكام التشريعية .

فإن الدماء والأموال والأعراض أكبر من أن تتداول فيها شائعات علمية وكذلك أصول التربية ، وتقاليد المجتمع ، والشعائر التي يشخص إليها الرأي العام . وتعد منارات على حقائق الإسلام وأهدافه في الحياة ... يمكن الاكتراث بالأحاديث الضعيفة في قضايا هامشية أو حيث تكون زيادة تنبيه إلى مآثرته الأدلة المحترمة في كتاب الله وسنة رسوله ..

وهذا هو منهج علمائنا من قديم ، ولكن طوائف من العوام ، أو من ذوى الأغراض حادوا عن هذا المنهج فرأينا أشياء تحتاج لها جماهير ما كان السلف الأول يأبه لها !!! .

ونتم ذلك على حساب حقائق الإسلام الكبرى في مجال العقيدة والشريعة ، ومجال الإدارة والاقتصاد والسياسة ! .

بل أستطيع القول بأنه تم على حساب الأخلاق والتركبة التي بعث بها صاحب الرسالة العظمى ..

ومن الدهماء من يهتم بقضية رفع اليدين قبل الركوع وبعده أكثر مما يهتم بتوفير الخشوع والقنوت بين يدي الله سبحانه وتعالى . وخلاف الفقهاء في هذه القضية معروف ...

والبعد الذي لاحظناه عن منهج السلف يرجع إلى انتشار الأحاديث الضعيفة ، ويرجع قبل ذلك إلى انتشار مقولة لم يكن لها رواج بين الفقهاء القدامى ، وهي أن حديث الآحاد يفيد اليقين العلمي الذي يفيد المتواتر !!

إن الحديث الصحيح له وزنه ، والعمل به في فروع الشريعة له مساع و قبول ، وتركه لأدلة أقوى منه أمر مقرر مأنوس بين فقهاءنا ، أما الزعم بأنه

يفيد اليقين كالأخبار المتواترة فهي مجازفة مرفوضة ...

وقد قال لى أحد المتمسكين بأن خبر الواحد يفيد اليقين : إن المدرس - وهو رجل واحد - يؤتمن على التعليم ، وأن السفير - وهو رجل واحد - يؤتمن على أخبار دولته ، وأن الصحافي في الحديث الذى ينقله يؤتمن على ما يذكره ... الخ .

قلت : إن العنعنات التى تنقل بها المرويات ليست مثل ما ذكرت من وقائع ١ .

وإذا فرضنا جدلاً أنها مثلها من كل وجه فإن اليقين لا يستفاد من هذه الوقائع ، فإن المدرس قد يخطئ فيصحح نفسه أو يصحح له غيره ! والسفير ترقبه دولته وقد تراجع فيه فيما بلغ . وكذلك الأحاديث الصحافية ، إن ما يحفظها من قرائن النشر والإقرار أو الرد يجعل الثقة بها أقرب .

ونحن مع تحرى عدالة الشاهد لانكتفى بشاهد واحد ، وربما طلبنا أربعة شهداء حتى نطمئن إلى صدق الخبر ..

والشاهدان أو الأربعة ينشئون ظناً راجحاً ، ولا ينشئون يقيناً ثابتاً ، بيد أن حماية المجتمع لاتم إلا بهذا الأسلوب . أسلوب قبول الظن الراجح ! وهو ما قامت عليه الشرائع والقوانين في دنيا الناس ...

وذلك كله غير بناء العقائد في النفوس . وإقامة الأمم عليها ، إن العقائد أساسها اليقين الخالص الذى لا يتحمل أثارة من شك ..

وعلى أية حال فإن الإسلام تقوم عقائده على المتواتر النقلى والثابت العقلى ، ولا عقيدة لدينا تقوم على خبر واحد ، أو تخمين فكر ..

ثم يحىء دور التشريع في تحديد مسار الأمة العام . ومسالك الأفراد الخاصة ، وعندنا في هذا من النصوص ما هو قطعى الثبوت والدلالة ، وما هو

ظني الثبوت والدلالة ، وما هو قطعي الثبوت ظني الدلالة ، وما هو ظني الثبوت قطعي الدلالة ! .

واستفادة الأحكام من مصادرها لها علم خاص بها ولها رجال ثقات وعلى العامة أن تسمع وتطيع .

وقد رأيت في هذه الأيام من يسمى نفسه أمير جماعة . والجهد الذي يتصعب له عرقا وهو يقوم به ، هو إشاعة النقاب بين النساء ، أو إشاعة الجلباب بين الرجال ، أو تحريم الذهب على النساء والرجال جميعا ، أو ترك شعر اللحية ينمو فلا يؤخذ منه شيء حتى لقاء الله !!! .

أهذه غايات تتكون لها جماعات ؟ والغريب أن الأحاديث الواهية والخلافات الفرعية لها حظوظ متناقضة أو طوالع سعد ونحس !! فلست تدري لماذا عاشت هذه ؟ ولماذا ماتت تلك .. ؟ .

في مصر تحتفل العامة بليلة النصف من شعبان وليست لهذه الليلة القيمة التي تعطيها هذا الشأو الرفيع . وفي حديث مع أحد الأخوة من علماء الخليج قال : إن للأحاديث الموضوعة والواهية سوقا رائجة عندكم ! قلت : للأسف وعندكم كذلك ! .

قال : نحن نتحرى الأحاديث التي تصدر وفقها أحكامنا ! فضحكت وأنا أرد عليه بإجابة سريعة :

أظن الأحاديث التي وردت في ليلة النصف أقوى من الأحاديث التي وردت في تحريم الغناء ! .

فأجاب مستنكرا : هذا غير صحيح ! إن تحريم الغناء وآلاته ثابت في السنة النبوية ..

قلت له : تعال نقرأ سويا ما قاله ابن حزم في ذلك الموضوع ، ثم انظر ما تفعل ..

قال ابن حزم : « وبيع الشطرنج والمزامير والعيدان والمعاذف والطناير
حلال كله ومن كسر شيئا من ذلك ضمنه . إلا أن يكون صورة مصورة -
تمثالا مجسما - فلا ضمان على كاسرها . وتضمن المعتدى على هذه الأشياء
واجب ، لأنها مال من مال مالها » .

قال : « وكذلك يجوز بيع المغنيات - من الجوارى - وابتاعهن ! وأساس
الجواز في كل ما ذكرنا قوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعا »^(٤٤)
وقوله : « وأحل الله البيع »^(٤٥) ، وقوله : « وقد فصل لكم ما حرم
عليكم »^(٤٦) - يعني أن الأصل في الأشياء الإباحة . وأنه لا تحريم إلا بنص .
وقد فصل الله ما حرم في كتابه وعلى لسان نبيه . ولم يأت نص بتحريم شيء مما
ذكره من البيوع السابقة » ثم ذكر ابن حزم أن أبا حنيفة يوجب الضمان على من كسر
شيئا من آلات اللهو التي سماها آنفا !

قال : « واحتج المانعون بآثار لا تصح ، أو يصح بعضها ولا حاجة لهم فيها .
منها عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
قال : « إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها » قال ابن حزم
وهو يناقش سند هذا الحديث : « فيه من الرواة » ليث « وهو ضعيف ، وسعيد بن
أبي رزين ، وهو مجهول لا يدري من هو ؟ عن أخيه ! وما أدراك ما عن أخيه !
هو ما يعرف وقد سمي فكيف أخوه الذي لم يسم ؟ » .

وعن علي بن أبي طالب قال رسول الله : إذا عملت أمتي خمس عشرة
خصلة حلّ بها البلاء ..

منهن « واتخذوا القينات والمعاذف . فليتوقعوا عند ذلك ريحا حمراء
ومسحًا وخسفا » .

(٤٤) . (٤٥) البقرة : ٢٩ . ٢٧٥

(٤٦) الأنعام : ١١٩

قال ابن حزم في رواة هذا الحديث : لاحق بن الحسين وضرار بن علي
والحمصي مجهولون . وفرج ابن فضالة متروك ...

وعن معاوية قال : « نهى رسول الله عن تسع ، وأنا أنهاكم عنهن الآن ،
فذكر فيهن الغناء والنوح » قال ابن حزم : في رواته محمد بن المهاجر ضعيف ،
وكيسان مجهول ! .

وروى أبو داود بسنده عن شيخ (!) عن ابن مسعود يقول : سمعت
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الغناء ينبت النفاق في
القلب ! » .

يقول ابن حزم : الرواية عن شيخ عجب جدا ! من هذا الشيخ ؟
وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول :
« يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، يضرب على رؤوسهم
بالمعازف ، والقينات . يخسف الله بهم الأرض » .

قال ابن حزم وهو يناقش السند : معاوية بن صالح ضعيف ، وليس فيه أن
الوعيد المذكور إنما هو على المعازف ، كما أنه ليس على اتخاذ القينات ، والظاهر أنه
على استحلالهم الخمر ، والديانة لا تؤخذ بالظن .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله : « من جلس إلى قينة فسمع منها
صَبَّ الله في أذنيه الآتِك يوم القيامة » والآتِك هو الرصاص المذاب .

قال ابن حزم : هذا حديث موضوع فضيحة ، ما عرف قط عن طريق
أنس !! .

وعن مكحول عن عائشة قالت : قال رسول الله : « من مات وعنده جارية
مغنية فلا تصلوا عليه » ..

قال ابن حزم : مكحول لم يلق عائشة ، وهاشم وعمر الراويان مجاهيل !

وهناك حديث لا ندرى له طريقا وهو « نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
عن صوتين ملعونين صوت نائحة وصوت مغنية » وسنده لا شيء ! .

وعن أبي أمامة سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يحل
بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وثمنهن حرام » . وقد نزل تصديق ذلك في كتاب
الله وهو « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها
هزوا » ^(٤٧) ، والذي نفسى بيده ما رفع رجل قط عقيرته بغناء إلا ارتدفه شيطانان
يضربان على صدره وظهره حتى يسكت ، وقد نظر ابن حزم في الرواة فوجدهم بين
ضعيف ومتروك ومجهول ..

ولعل أهم ماورد في هذا الباب ما رواه البخارى معلقا عن أبي مالك
الأشعري أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ليكونن من أمتي
قوم يستحلون الخمر والحريير والخمر والمعازف » .

ومعلقات البخارى يؤخذ بها . لأنها في الغالب متصلة الأسانيد ، لكن
ابن حزم يقول : إن السند هنا منقطع . لم يتصل ما بين البخارى وصدقة بن
خالد راوى الحديث ..

نقول : ولعل البخارى يقصد أجزاء الصورة كلها ، أعني جملة الحفل
الذى يضم الخمر والغناء والفسوق . وهذا محرم بإجماع المسلمين ..

قال ابن حزم عن تحريم الغناء : « لا يصح في هذا الباب شيء أبدا ، وكل
ماورد فيه موضوع ، والله لو أسند جميعه أو واحد منه عن طريق الثقات إلى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - ما ترددنا في الأخذ به .

ثم نظر ابن حزم في الآية الكريمة : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث
ليضل عن سبيل الله .. »

فنفى أن تكون في الغناء وقال : إن نصها يشرح المراد منها ، فإن من يريد الإضلال عن سبيل الله واتخاذها هزوا كافر بإجماع المسلمين .

قال : ولو أن امرءا اشترى مصحفا ليضل عن سبيل الله لكان كافرا ... !

إن الله ما ذم قط من رُوح عن نفسه بشيء من اللهو ليعينه على الكثير من الجِدِّ ، وإنما الأعمال بالنيات ولا حرج على مسلم أن ينظر في بستان متزها ، أو يتنقل هنا وهناك متفرجا ليربح طبعه المكدود ..

والحق أن الغناء كلام ، حسنه حسن وقبيحه قبيح ! هناك أغان آئمة ، تلقى في ليالٍ ظالمة مظلمة وإن كثرت فيها الأضواء ، لا تسمع فيها إلا صراخ الغرائر أو فحيح الرغبات الحرام ..

وهناك أغان سليمة الأداء شريفة المعنى قد تكون عاطفية وقد تكون دينية وقد تكون عسكرية تتجاوب النفوس معها . وتغضى مع ألحانها إلى أهداف عالية ...

كنت مع رفقة طيبة نتغدى في فندق محافظ بحى « الهرم » ووصل إلى أسماعنا صوت جذب انتباهى . وألقيت إليه زمامى ، كأنه صوت ناصح حزين يقاوم المحون والاسترخاء ..

وأخذت أتبيّن الألفاظ التى تصدر من مسجل موضوع بإحدى الزوايا ، فإذا هى للبوصيرى أو بتعبير أدقّ تشطير لأبيات من البردة ، كان البوصيرى والشاعر الآخر يدوران فيها حول البيت المشهور في وصف الرسول الكريم : كأنه - وهو فرد - من جلالاته فى عسكر حين تلقاه وفى حشم !

لم تكن هناك ألحان مصاحبة تثير المشاعر ، كان صوت المبتهل الشادى مزيجاً من إيمان وحب جعلانى أطوى العصور القهقرى . وأمثل فى حضرة صاحب الرسالة ، وهو فى مجلسه الروحى يوجّه ويربى ، ويخلق الجيل الذى

سينشئ حضارة أرقى وأتق ، ويلقى بذور الإنسانية الجديدة التى ستقذف العالم من
جبروت الرومان والفرس ...

كان فردا يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد ، ولكن 'الأشعة
المنبثقة من أركانه تجعل الأبصار تنحسر عنه . وتجعل الأباطرة والقيصرة يثبون
عند قدميه .. !

إن الغناء الرقيق المتواضع الذى سمعته لا يزال يؤثر فى نفسى كلما استحضرت
جرسه ، بعد ما صار ذكرى ..

قال الإمام الشاطبي فى الجزء الأول من كتابه « الاعتصام » : إن قوما أتوا
عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالوا : ياأمير المؤمنين إن لنا إماما إذا فرغ من
صلاته تغنى !! .

فقال عمر : من هو ؟ فذكروا له الرجل . فقال : قوموا بنا إليه ، فإننا إن
وجهنا إليه - من يخضره - يظننا نجسنا عليه أمره .

وقام عمر مع جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى أتوا
الرحل وهو فى المسجد . فلما نظر إلى عمر قام إليه واستقبله قائلا : ياأمير
المؤمنين ما حاجتك ؟ وما جاء بك ؟ .

إذا كانت الحاجة لنا كنا أحقّ بذلك منك أن تأتيك ، وإن كانت الحاجة
لك فأحقّ من عظمناه خليفة رسول الله ! . فقال له عمر ويحك بلغنى عنك
أمر ساءنى ! فقال : وما هو ياأمير المؤمنين ؟ قال : أستمجّن فى عبادتك - من
المجاعة والانضاع - ؟ قال : لا ياأمير المؤمنين . لكنها عظة أعظ بها نفسى ! .

قال عمر : قلها . فإن كانت كلاما حسنا . قلته معك . وإن كان قبيحا
نهيته عنه ... فأنشد الرجل هذه الأبيات :

وفؤاد كلما عاتبته فى مدى الهجران يبغي تعبي !
لا أراه الدهر إلا لاهيا فى تماديه ، فقد برّح بي

ياقريس السوء ما هذا الصبا؟ فنى العمر كذا فى اللعب !
وشباني بان عنى فضي قبل أن أقضى منى أرني
ما أرجى بعده إلا الفنا ضيق الشيب على مطلبي
وبح نفسي لا أراها أبدا فى جميل ، لا ولا فى أدب
نفسى لا كنت ولا كان الهوى ! راقبى المولى ، وخافى ، وارهبى !

فقال عمر رضى الله عنه مرددا البيت الأخير :

نفسى لا كنت ، ولا كان الهوى ! راقبى المولى وخافى ، وارهبى !
ثم قال عمر : على هذا فليغن من غنى ... ! .

أقول : ولنا فى أمير المؤمنين أسوة حسنة ! كل إنشاد يبعث على السمو والجد
والاستقامة فهو غناء حسن ، وما أحسب أحدا يرى نفسه أتقى لله من عمر ! أو
يتزّه مما أقرّه ودعا إليه .

وعندما أسمع قول شوقي

ويارب هل تغنى عن العبد حجة؟ وفى العمر ما فيه من الهفوات !
أتذكر فضل الله فى جعل الحج توبة كاملة ! لكن صوت المغنية المضارعة يحرك
أشجان الأخطاء القديمة ، كما يحرك الآمال فى عفو الله ، وهذا كله لون من العبودية
المطلوبة لله سبحانه .

وكما ينشد المرء الخلاص من ماض مرهق .. ينطلق الشعر والغناء إلى
استنقاذ الأمة الإسلامية من حاضر مؤسف ، مع مناجاة صادقة للرسول عليه
الصلاة والسلام ..

شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق سبات !
بأيمانهم نوران ذكر وسنة !! فما بالهم فى حالك الظلمات ؟
يقول الدكتور عبادة : إن أبا حامد الغزالي - اقتداء بالشافعى - يرى أن
الشعر كلام . حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وأن سماع الغناء منه ماهو مباح ومنه

ما هو مستحب . وما هو واجب وما هو مكروه . وما هو حرام !! ثم يصنف
الغناء إلى سبعة أقسام :

١ - إلهاب الشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة . وابتغاء المسلمين في
الأقطار البعيدة كي يشدوا الرحال إلى الحرمين وذلك يبدو في قصيدة شوق :

إلى عرفات الله ياخير زائر عليك سلام الله في عرفات !
٢ - إثارة الحمية للقتال . والدفاع عن العقائد والأوطان . وأغلب
الشعوب تضع لبنها نشيدا قوميا يتغنون به جماعات ..

وخير نموذج لهذا النوع من الغناء ما جمعه أبو تمام في ديوان الحماسة !
وليت أمتنا تحسن الغناء بمعاني القوة المنبثة في قصائده ..

٣ - وصف المعارك والمبارزات وثبات الرجال في الساعات الحرجة

٤ - الرثاء المحرك للأحزان النبيلة ! والذي يعيد للنفس الفهم الصحيح
لضبيعة الحياة الدنيا . وهذا الرثاء قد يكون بكاء سلبيا متفجعا مثل قول متمم
ابن نويرة يرثي أخاه مالكا :

يقول : أتبكي كل قبر رأيت ؟ نقبر ثوى بين الثوى فالدكادك
فقت له : إن الشجا يبعث الشجا ! فدعى . فهذا كله قبر مالك !
وقد يكون رثاء مفعما بتمجيد الفضائل والالتفاف حولها وذلك كقول دريد
ابن الصمة :

تقول : ألا تبكي أخاك ؟ وقد أرى مكان البكا لكن بنيت على الصبر !
فقلت : أعبد الله أبكى أم الذي له الحدث الأعلى قتيل بي بكر ؟
أبي القتل إلا آل صِمة إنهم أبوا غيره والقدر يجري إلى القدر !

٥ - وصف ساعات الرضا والسرور . احتفاء بها واستبقاء لآثارها .

٦ - الغزل الشريف . وشرح عواطف المحبين وارتقاب جمع الشمل .

وربما كان للأثم والأفراد في هذا الميدان هبوط وهزل ، لكن هناك مشاعر
جديرة بكل إعزاز مثل :

مزارك من ربا وشعبا كما معا	حتنت إلى « ربا » ونفسك باعدت
وتجزع أن داعى الصباية أسعيا	فما حسن أن تأتى الأمر طائعا
وقلّ لنجد عندنا أن يودعا	قفا ودعا نجدا ومن حلّ بالحمى
وما أحسن المصطاف والمترعا !	بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا
إليك ، ولكن خلّ عينيك تلمعا	وليست عشيات الحمى برواجع
عن الجهل بعد الحلم أسبكت معا	بكت عيني اليسرى فلما زجرتها
على كبدي من خشية أن تصدعا	وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى
حرام على الأيام أن نتجمعا	كأننا خلقنا للنوى وكأنما

٧ - وصف الأجداد الإلهية ، وما يليق بذى الجلال والإكرام من تجميد
وإعظام .

وارتفاع المغنين إلى مستوى المعاني التي يترنمون بها أمر صعب ! ونجاح
الأغنية يعود بعد شرف المعنى إلى حسن الأداء وجودة اللحن . وتجميع
الأنغام التي تخدم في النفس البشرية ما يحقق الاستشارة المنشودة !

وقد استمعت إلى بيت شوقي :

وللسحرة الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق !

وشعرت بأن المغنى فشل فشلا ذريعا في تلحينه . كان ينبغي أن يتعاون
النغم والأداء على إبراز صوت المطارق التي تهوى على الأبواب الموصدة ،
وجوّار المجاهدين وهم يهاجمون السجون التي قبعت داخلها الجماهير المستعبدة ،
وعزائم الشهداء وهم يجودون بأنفسهم فداء للحق ، وأنين الجرحى . وعناد
المكابرين ... إن حشودا من الأصوات المزججة ، والجيوش الملتحمة كان يجب

أن تبرز خلال تلحين القصيدة وعند غناء هذا البيت ذاته .. لكن الملحن المغنى
ليس رجل هذه الملحمة ...!

والواقع أن البيئة الفنية - كما تتراعى إلينا أنباؤها - تعيش في أرض الفرائز
وتحسن الطبل والزمر وهى تحدد العواطف الرخيصة ، وما أحسبها تنهض إلى
هدف عال .

أذلك سر نحرم بعض الوعاظ للغناء ؟ ربما . إنه ليس لدينا نص يحظره !
وإن أولى الغيرة ينظرون إلى سيرة المشتغلين بالغناء والموسيقى ثم يرفضون هذا
النمط من السلوك . ويستنكرون ما يلبسه وما يصاحبه من آلات . وجؤ
عابث ..

لكن الإنصاف يفرض علينا غير ذلك .

من حملة الأقلام من عاش ذيلاً لحكام الجور ، يتلون كالحرباء في خدمتهم .
ويصبح ويمسى وهو يخادع الجماهير عن حقوقها وحرياتها . فهل هذا البغاء الصحفى
يجعل الصحافة باطلا ؟ كلا !

ومن رجال الدين نفسه من يحيا بلا دين ! بل ربما كان عائقا عن الدين
كما قال جلّ وعلا في وصف بعض الكهان : « إن كثيرا من الأحبار والرهبان
ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » (٤٨)

فهل ذلك يعنى أن الدين باطل ؟ كلا !

وهناك فنانون لا يساوون قلامة ظفر ! وهناك أيضا من صليت معهم في
جماعات عامة ومن رأيتهم في قوافل الحجاج والعمار يؤدون المناسك بأدب
وتقوى !

وأذكر أنى عندما كنت مدرسا بمكة المكرمة ، جلست سأمنا في بيتى يوما

(٤٨) التوبة : ٣٤

أعاني من بعض المتاعب فقلت : أتسلى عن همومي بشيء . وفتحت الراديو
وسرني أن كانت به أغنية أحبها .

وما كدت أمضي مع الأبيات والألحان حتى طرق الباب طالب أشرف على
رسالته ! .

وخيل إلى أني أستطيع السماع مع وجوده ولكنه أقسم على أن أغلق
الراديو ! .

ورأيت إكراماً له أن ألبى رغبته ، وأكملت وحدي بعض كلمات الأغنية :

أين ما يدعى ظلاماً يا رفيق الليل أينما ؟
إن نور الله في قلبي ! وهذا ما أراه !

وصاح الطالب : ما هذا ؟ قلت له : كل يغني في الأنام بليلاه . إنني
أعني شيئاً آخر ! .

قال : أما تعلم أن الغناء حرام كله ؟ قلت له : ما أعلم هذا . . !

ثم أقبلت عليه نجد أقول له : إن الإسلام ليس ديناً إقليماً لكم
وحدكم . إن لكم فقها بدوياً ضيق النطاق ! وعندما تضعونه مع الإسلام في
كفة واحدة . يقولون : هذه الصفة لا ينفصل أحدها عن الآخر ، فستطيش
كفة الإسلام وينصرف الناس عنه .

وهذا ظلم كبير لرسالات الله وهداياته ! ! .

قال : كيف ؟ قلت له : تستطيعون إعلان حرب شعواء على الغناء
الوضيع ، وتستجدون من يؤيدكم من أهل الأرض ! أما الزعم بأن الإسلام
حرب على الفن كله خيره وشره فلا ! .

إن أهل القارات لهم غناء يجتمعون عليه . فيزوا الخبيث من الطيب ثم
دعوا لهم مايستحبون .

وكتبت الأستاذة المهدية « مريم جميلة »^(٤٩) فصلا عن الإسلام والفنون في كتابها « الإسلام في النظرية والتطبيق » وذكرت أن الأوربيين يحترمون احتراماً بالغاً « بتهوفن » و « باخ » في الموسيقى و « فردى » و « واجنر » في الأوبرا و « شكسبير » في المسرح .. الخ . ويلقبونهم بالسادة العظام ، ويعتبرون تكريس الحياة لأى فرع من هذه الفنون الجميلة من أشرف المقاصد ، وأكثرها جدلاً !! .

قالت : وإذا عرفت موهبة شخص ما بالتفوق الفنى - وغالبا مايقع ذلك بعد سنوات من رحيله - حسب فى زمرة العظماء الخالدين ! وبحقق الروائيون التقليديون خلودهم الفنى عندما تطبع كتبهم مرات ومرات وتمتدح على أنها أعمال أدبية عظيمة يلزم كل طالب فى المدارس أن يدرسها .

ويخلد مؤلفو الموسيقى السيمفونية ، والأوبرا بأداء إنتاجهم مرارا وتكرارا فى قاعات الاحتفالات العظمى فى المدن الكبرى كما يكرم أعظم المغنين والعازفين بتسجيل أعمالهم على الأشرطة والاسطوانات .

قلت لنفسى : ما المنهاج الإسلامى الذى أقدمه لهذه الأوساط ؟ هل أطلب إليهم إلغاء الفنون الجميلة جملة وتفصيلا ؟ .

علام أعتمد فى هذا الطلب ؟ على جملة من الأحاديث الواهية والموضوعة لا وزن لها فى مجال التحييص العلمى ؟ .

إننى عندما أفعل ذلك أكون كأبى العلاء المعرى الذى قال لكل إنسان : غدوت مريض الدين والعقل والحجى لتعرف أنباء الأمور الصحائح ! فلما التقى الناس به واستمعوا إليه رأوه نباتيا يعرض الأمور الصحيحة عنده على أنها ترك أكل اللحم ! .

إننى أطلب من الأوربيين وغيرهم ترك التجسيد والتعديد لإصلاح

(٤٩) سيدة من أصل يهودى عاشت فى بيئة نصرانية بالولايات المتحدة الأمريكية ثم أسلمت

عقائدهم فهل أضع عائقا أمام هذا الإصلاح الخطير بدعوتهم إلى ترك الغناء والموسيقى؟ فما يكون موقفى من قوله تعالى فى كتابه المصون « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » (٥٠)

أستطيع أن أحرم تحت التماثيل ، أستطيع أن أحرم كل صورة عارية . أستطيع أن أحرم الرقص مفردا ومزدوجا ، إن هذه فنون رديئة وليست فنا جميلة ..

أستطيع أن أبرز الضوابط الإسلامية لسلوك الأفراد مهما كانوا عباقرة . فالعبرى فى أى علم أو فن يجب أن يستشعر نعماء الله عنده ، وأن يكون أتقى لله وأحفظ لحدوده . وأرعى لحقوقه من الآخرين ..

والمصادر الوثيقة لتحديد ما نفعل وما نترك وما نأمر وما نهى ، هى كتاب الله وسنة رسوله ، لا الشائعات الطائفة فى ميدان العلم الدينى ! .

قرأت السطور التالية (٥١) عن تعلق الأوربيين بالفنون الجميلة ثم ضربت كفا بكف من شدة العجب للضلال المبين الذى استولى على أفئدة هؤلاء الداهلين . وماكم ما كتب نقلا عن كتاب « الثقافة الإسلامية » للإستاذ محمد مرمدوك بكتال قال : « لاشك أن بعضكم يذكر البحث الذى أوردته الصحف البريطانية من سنوات ، كان السؤال : لنفرض أن تمثالا يونانيا شهيرا جميلا فريدا فى نوعه ، وهو من أجل ذلك لأيعوض ، كان فى غرفة واحدة مع طفل حى ، ثم اندلعت النيران فى الغرفة . ولم يكن فى الإمكان إلا إنقاذ واحد من الإثنين إما التمثال وإما الطفل (!) فأيهما يجب إنقاذه ؟ .

(٥٠) يونس : ٥٩ - ٦٠

(٥١) فى كتاب - الإسلام فى النظرية والتطبيق - للسيدة مريم جميلة

إن كثرة عظمى من الذين أجابوا على هذا السؤال في رسائلهم إلى الصحيفة من الرجال ذوى الثقافة والمكانة المرموقة قالوا - حسب ما أذكر - أنه يجب إنقاذ التمثال وترك الطفل يهلك (!) .

وكانت حججهم فى ذلك : أن ملايين الأطفال يولدون يوميا على حين أن هذا التمثال لا يمكن تعويضه ، فإنه عمل فنى عظيم من تراث اليونان .

أرأيت كفرا أقبح من هذا الكفر؟ وإهانة للإنسانية أشنع من هذه الإهانة ؟ .

حجر يستنقذ وطفل رقيق وديع يترك حطبا للنار؟ .

المثير فى هذه القضية أن مصورا يرسم على الورق منظر الشروق أو الغروب بمهارة تحاكي الأصل أو تومئ إليه بعد فنانا جديرا بالإشادة والتقدير ! أما صاحب الأصل نفسه ، أما فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، فهو يُنسى أو يُجحد ، ولا توجه إليه عبارة ثناء !! .

عندما يحىء فنان إلى حجر فيطبع عليه صورة إنسان ، يكون رجلا عظيما .. وتبلغ عظمته القمة عندما يقترب فى نحته من قسماة الإنسان الأصل وتعاير وجهه ..

أما خالق الإنسان نفسه ومبدع الحياة فى خلاياه ومجرى الدم فى العروق . وبارئ الحس فى الأعصاب . ومودع الذكاء فى المخ ، ومطلق هذا البشر العجيب ليملا الدنيا حراكا وإنتاجا . هذا الخالق الماجد لا تذكره الحضارات الضالة بكلمة تقدير وإعزاز .

إن الوثنيات اليونانية والرومانية انتقلت إلى الحضارة الأوربية . وليست النصرانية إلا قشرة مزورة ملصقة على وجه كفور يرفضها وينأى عنها .

أما الحضارة الإسلامية فشأوا آخر . إنها ترمق عظمة الله قبل كل شيء ،
وانظر إلى أبي حامد الغزالي يتحدث عن الجمال وفنونه فيقول (٥٢) :

إن الفن محاكاة للجمال الذي أبدعه الله في آفاق العالم ، أو هو تشبيه
للصنعة بالخلقة وما من شيء بلغه أهل الصناعات بمجهودهم إلا وله مثال في
الخلقة التي اخترعها الصانع الأعلى ! فنه تعلم الصانعون . وبه اقتدوا ! .

ويقول : كل جمال في العالم تدركه العقول والأبصار والأسماع وسائر
الحواس من مبتدئ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثريا إلى سفوح الثرى ، فهو
ذرة من خزائن قدرته سبحانه .

* * *

ونقل هنا سؤالاً وجواباً يتصلان بموضوع البحث . حتى لا تبقى هنالك أثارة
من شك أو شبهة ...

- ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة . السينما والمسرح والموسيقى
والفنون جميعها . كالرسم والنحت والتصوير ؟ .

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمي باهر ، وصل إليه الإنسان بعد قرون من
البحث المصني والتجارب الغالية ! ولم يكن عجباً أن يستغل الإنسان كشوفه
لاسرار الكون وقواه الخفية في ترقية نفسه وترقية معاشه . بل إن ذلك أقرب إلى
الحكمة من استغلال هذه الكشوف في تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار
الجماعي على الناس ! .

وأحسب أن التقدم الصناعي العام وفر للجماهير متعاً ما كان يحصل عليها
الملوك الاقدمون ! الاطعمة أنعم ، والاشربة صنوف ، والملابس تفضل الحرير
نسجاً ولونا ورقة ، وأدوات النقل أغنت عن الخيل والبغال والحمير ، والقيان

(٥٢) العبارات من تلخيص للدكتور عبد اللطيف عبادة .

التي كانت تغنى في مقاصير الامراء انتقل صوتها إلى الأكواخ . ونام على لحى
العمال والفلاحون ، والمرء في المشرق يكلم صاحبه في المغرب بثمان ميسور . وربما
بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى . وملكوا غدا أنصبه أكثر .. ! .

ومع هذا كله فالأعصاب مشدودة . والاضطاع طاغية ، والبكاء على القليل
المنشود يفسد السعادة بالكثير الموجود ، وتحاسد الأفراد والاقطار أشعل البغضاء
هنا وهناك ! .

وقيل في وصف العالم : أن عضلاته أكبر من فكره . ولو أنصفوا لقالوا :
إنه عالم يذكر نفسه ، وينسى ربه ، ويحدد حقه ، ويمارى في لقائه ، ويظن أن
هذه الدنيا كل شيء ، فلا امتداد لوجود آخر . ولا حياة إلا هنا .. !! .
وأنا رجل مسلم أحب الحياة وأبتهج بطيبتها ! إن الله استضافني في كونه
وأطعمني خيره فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبدول . ومن السفاهة كذلك أن
أضن بشكر النعم ! .

إن الله تبارك اسمه يعطى الفضل ولا يطلب إلا الاعتراف بالجميل . فهل
هذا ثمن قادح ؟؟ .

يبدو أن ناسا كثيرين يعز عليهم دفع هذا الثمن « وقليل من عبادى
الشكور » (*) .

على ذلك الأساس أنظر إلى ما قدمته الحضارات قديمها وحديثها ! إنه - كما
علمنى الإسلام - لى وليس لغيرى ، أليس يقول الله : « هو الذى خلق لكم ما
فى الأرض جميعا » (**) ؟ .

ومن ثم فالأصل فى الأشياء الاباحة ، ولا تحريم إلا بنص قاطع ، والواقع
أن نفرا من سوداوى المزاج أولعوا بالتحريم ومنهجهم فى الحكم على الأشياء
يخالف منهج نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام الذى ما خير بين أمرين إلا اختار

(*) سبأ ١٣ . (**) البقرة ٢٩ .

أيسرها ما لم يكن إنما فإن كان إنما كان أبعد الناس عنه روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والأديرة رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .

وقد أشاعت المدنية الحديثة « الراديو والتلفزيون » وغيرها من الأجهزة الناقلة للثقافة والملاهي على سواء ، ومعروف أن هذه الأجهزة أدوات غير مسئولة عما يصدر عنها ، وإن المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين ، ففى استطاعتهم أن يقدموا النافع ويحجبوا الضار .. ! .

لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الأجهزة لاشاعة اللغة السليمة وتذوق الآداب الرفيعة وحماية الأخلاق ودعم التقاليد الفاضلة ، بل كان من الممكن أن ندرّب الألوف على اتقان حرف نحن محتاجون إليها ، وأن نرفع مستوى الأداء لاشغال كثيرة ، فإن البطالة السافرة والمقنعة تفتك لدينا بأعمار الناس .

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا ووقفت مسيرتنا . إن وسائل الاعلام لو أحسنا استغلالها تصنع الكثير ، ولكن ذلك لا تستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالة فى الحياة ، أما الأمة الذنب فقد سقط عنها التكليف لأن غيرها يشدها .

قد يفهم من ذلك أنى أحارب الغناء والموسيقى والترويح عن النفس .. لا . ولكنى ألحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلا وتغنى كثيرا . والاستجمام حق المرهقين لاحق القاعدين ! .

أما الغناء فكلام ، حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه ! وما نحارب إلا غناء هابط المعنى واللعن ...

لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الإطلاق ، وقد احتج البعض بقوله تعالى « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم

وينخذها هزوا : أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها .. » (٥) .

ولعمري أن من يشتري جد الحديث أو لهوه للأسباب المذكورة في الآية جدير بسوء العقاب ، أما من يريح أعصابه المكدودة بصوت حسن ولحن جميل فلا علاقة للآية به ، وكما يقول ابن حزم : لو اشترى مصحفا للاضلال فهو مجرم ...

ويبدو أن اقتران الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش . وما يشاع عن البيئة الفنية من تحلل . هو الذي جعل عددا من العلماء يحرمه . وإلى هذه الجملة من الرذائل يشير حديث البخاري إلى من يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ..

بيد أنه ليس من الضروري أن تجتمع هذه العناصر كلها عند سماع أغنية .. وعلى أية حال فإذا كان الغناء مقرونا بتلك المحرمات فهو مرفوض ، أما إذا برئ منها فلا شيء فيه .

والموسيقى كالغناء وقد رأيت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم مدح صوت أبي موسى الأشعري - وكان حلوا وقد سمعه يتغنى بالقرآن - فقال له : لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود ! ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك .. وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون نخرج . ولا أدري من أين حرم البعض الموسيقى ، ونفر من سماعها ؟ .

على أن الألحان تختلف في تأثيرها وصداها النفسي ، فإذا كان هناك مجال لاعتراض فعلى الأصوات الختنة والألحان الطرية المائعة ..

ونعود إلى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والقليل من اللهو ، ولو رزقنا بفنانين ذوي شرف ومقدرة لأمكن تحويل الفنون

(٥) لقمان : ٦ ، ٧ .

إلى عوامل للبناء لا للهدم ، ولإثارة المشاعر النبيلة لا إهانة الغرائز الدنيا ...
أما الصور فيجب أن نفرق بين نوعين : الجسم الذى يصنعه المثالون الآن
لأغراض شتى ! والرسوم التى توضع على المسطحات من أوراق وأقمشة وغير ذلك .

والتصوير سواء كان شمسيا أو قلميا هو جزء من الطب والأمن والعلوم
الكونية والحوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة ، والأصل فيه الإباحة
لحديث مسلم « إلا رقما فى ثوب » ولحديث رزين سئل ابن عباس عن أجرة كتابة
المصحف . فقال : « لا بأس إنما هم مصورون ، وأنهم إنما يأكلون من عمل
أيديهم » .

ولم يقل أحد أن صورة الوجه فى المرأة محرمة ، ولا يقول أحد أن إثباتها
بطريقة أو بأخرى تحول المباح إلى محرم ..

ولا يحرم من هذا النوع إلا ما حمل طابعا دينيا لعقائد يرفضها الإسلام
كصور بوذا . أو إبراهيم . أو صلبان النصارى . أو أى شعار ديني يخالف
التوحيد ..

كما يحرم أى تصوير يخل بالآداب . ويحرك الغرائز إلى المعصية ..

أما التماثيل المحسمة فإن النصوص الواردة تتظاهر على رفضها ما لم تكن
الاعيب للصية أو عرائس هزلية كحلوى المناسبات المختلفة . فإن أحدا لا يفكر
فى توقيها أو عبادتها ..

لقد رأيت بعينى من يعبدون هذه الأصنام فى جنوب آسيا ، ورأيت فى مصر
من يخشى بخشوع تماثلا لعبد الناصر !! وذلك أثناء نقله من مكان إلى
مكان .. !! .

وأعرف أن هناك من رجال الفتوى من يحرم التصوير كله سواء كان مجسما أو
كان رسما على ورق ، وأخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملابسها
سببا فى ضياع الدين والدنيا معا ! .

الذّين بَينَ العَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ

آداب الطعمَام

آداب المَلَبَس

آداب المَسَاكِن

آدابُ الطعام

هناك عادات ألفها الناس ويستغربون الخروج عليها . وهناك عبادات كلفوا بها ويرون التزامها ديناً ! والعادات من صنع الناس ، أما العبادات فمن عند الله سبحانه ...

وقد قرأت لعالم هندي آداب الإسلام في الطعام . فوجدت الرجل خلط بين العادات والعبادات ، وحارب عادات غريبة بعبادات عربية ، وهي حرب لا صلة لها بالإسلام .

قال : « يجب أن يوضع الطعام على الأرض لا على الطاولة » وقال : « يجب على الآكل أن يجلس متربعاً أو على ساق أو جاثماً على الساقين ولا يتناول الطعام أبداً مستنداً إلى كرسي .

ويجب أن تسبق النية الطعام - أي أن يقصد بالأكل القوة على طاعة الله - لإشباع الشهوة . ويجب أن تشترك الأيدي الكثيرة في الإناء الواحد ، ويجب أن يذكر اسم الله قبل أن يأكل ... » !! .

وأكثر ما قاله الرجل بعيد عن الصواب ! فالأكل جائز على الأرض وعلى المنضدة . ويجوز الجلوس على الكرسي في أثناء الأكل ، وينبغي أن يرضى ربه بالطعام في الوقت الذي يشبع فيه نهيمته منه ! وله أن يأكل وحده في إنائه . أو يأكل مع آخرين !

والواجب حقاً أن يسمى الله قبل الأكل فقد صح قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « سَمَّ الله وكل يمينك . وكل مما يليك » ! .

وقد وردت أحاديث شتى في آداب الأكل بعضها صحيح . وبعضها مرفوض ، وبعضها من عادات العرب .

فالقول بأن استعمال السكين في الأكل حرام لا أصل له . وقد روى أبو داود حديثا عن عائشة جاء فيه « لاتقطعوا اللحم بالسكين فإنه من صنع الأعاجم وانهشوه نهشا فإنه أهنا وأمرأ » ! .

وهذا حديث باطل فقد ثبت في الصحيح أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يستخدم السكين في تقطيع اللحم وهو يأكل . وسند الحديث المروى عن أبي داود مرفوض ..

ولم يحى أمر بالأكل على الأرض . أو نهى عن الأكل فوق طاولة ، وما سكت الشارع عنه فهو في دائرة العفو . ولا مكان لوجوب أو حرمة ! .

وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - محشوشنا في حياته لا مترفا . ومع ذلك لم يحرم حلالا . ولم يضيق واسعا . عن أبي حازم سألت سهل بن سعد : هل أكل النبي النقي - الخبز الخالص من القشور - ؟ فقال : ما رأى النبي النقي منذ ابتعته الله تعالى حتى قبضه ! .

فقلت : هل كانت لكم مناخل ؟ فقال مارأى النبي منخلا من حين ابتعته الله حتى قبضه ! قلت : كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول ؟ قال : كنا نطحنه وننفخه فيطير منه ماطار - من قشر - ومابقى ثريناه فأكلناه »

تلك كانت حياتهم ! وعليها اعتادوا . ثم تأتق الناس في صنع الخبز النقي دون حرج .

قال تعالى : « يأيتها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ... » (٥٣) . وقال : « يأيتها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ... » (٥٤) .

وروى أبو داود عن وحشى بن حرب أن الصحابة قالوا يا رسول الله . إنا نأكل ولا نشبع ! قال : فلعلكم تفرقون ؟ قالوا : نعم . قال : فاجتمعوا على طعامكم . واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه ! .

ونحن نرى فى هذا الحديث بواعث الجود واستضافة الفقراء ومحاربة الأزمات . فلا يجوز ترك المحرومين يتضورون جوعا ! .

ولا يجوز أن يفهم من الحديث تحريم الأكل فى غير طبق واحد ! كيف والله سبحانه يقول : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا .. » (٥٥) ولو وضع لكل فقير طعام فى صحفة ما كان هناك من حرج .

ومن أركان النظافة أن يأكل المرء بيمينه . فإن الإسلام جعل اليد اليسرى لإزالة القذى . وهذه قسمة لا بد منها . وليس من الشرف أن يضع إنسان يده على فرجه ثم يَدُسُّها بعد ذلك فى فمه !! .

ولأى إنسان أن يأكل بيمينه مباشرة أو يأكل بملقعة ، ففى الأمر سعة ! وكان العرب يأكلون بأيديهم . وتلك عادتهم . ولا غرابة إذا كان الأكل بيده يلغى أصابعه .. ولكن جعل هذه العادة ديناً مما لا أصل له ، ومن الدين ألا يترك المسلم فى صحفته طعاما كثيرا أو قليلا لئلا يُرْمَى بعدُ فى القمامة فهذا مسلك ذميم ..

والغريب أن الأوربيين يتركون صحنهم أقرب ما تكون إلى النظافة . أما العرب فيدعون فى صحنهم ما يزرع أوانى القمامة وما يقر عين الشيطان بالإسراف .

وفى هذه الأيام تذهب وفود من المسلمين إلى أوروبا وأمريكا . ويمكن أن يتميزوا عن غيرهم فى آداب الأكل . بترك المحرمات وتسمية الله مثلا !

أما الجلوس على الأرض حتما . والامتناع عن استعمال الملاعق . والحرص

على لعق الأصابع .. الخ . فهذا تنطع أضرب بالإسلام ورسالته ، وأطلق ضد المسلمين شائعات رديئة ! .

فهل أمست الدعوة إلى التوحيد دعوة إلى نمط من سلوك العرب الأوائل حتى في أيام جاهليتهم ؟ إن هذا السلوك البدائي صددٌ عن سبيل الله

آداب الملبس

ولنترك الطعام إلى الملابس .

قرأت للعالم الهندي السابق ذكره حديثاً عن البيهقي . « عليكم بالعمائم فإنها سيماء الملائكة وأرخواها خلف ظهوركم » ! .

وقرأت عدة أحاديث في فضل العمام رواها الترمذي وأبو داود ، وهي جميعها لا قيمة لها . كما قال الشيخ محمد حامد الفقي : « ليس في فضل العمامة حديث يصح » .

والعمائم لباس عربيّ ، وليس شارة إسلامية . وكذلك العقال ، والواقع أن البيئة الحارة تفرض تغطية الرأس والقفا ، ويستحب فيها البياض والسعة . أما البيئات الباردة فطلب الدفء يدفع إلى تضيق الملابس واختيار الألوان الداكنة . وقد جاء في الحديث الصحيح : « كل ما شئت . والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة » .

ونحن نلاحظ أن الإسراف والخيلاء ، من وراء عادات عربية وغربية كثيرة ، وأصحاب الخلق والجد يترفعون عن المبالغة في اختيار الأزياء . حتى لكأن قيمة الرجل من عظمة ثوبه ! ..

والحضارة الحديثة لفساد تدينها وعرام شهواتها عقدت تقاليد اللباس والزينة . فجعلت للسهرات ملابس فاضحة ، وجعلت للإقامة زياً وللسفر زياً وللأكل زياً وللرياضة زياً ، وللربيع زياً وللصيف زياً ... الخ .

والمسلم يرتدى مايشاء غير جانح إلى إسراف أو خيلاء ..

وجمهور العلماء على تحريم الحرير والذهب للرجال وإباحتهما للنساء ، كما أن الجمهور على أن للنساء ملابس . وللرجال ملابس . والأصل في ملابس النساء أن تكون ساترة لأجسامهن . ولا حرج في أن تكون جميلة غير مثيرة . والأصل في ملابس الرجال أن تلائم أعمالهم ، ولا حرج في أن تكون جميلة . كما قال ابن عباس : « رأيت على رسول الله أحسن ما يكون من الحلل » .

ووددت لو كانت للرجال أزياء موحدة . وللنساء كذلك أزياء موحدة . فإن هذا التوحد يقطع دابر التنافس الباهظ التكاليف . المفسد للأخلاق . الذي نراه في ميادين كثيرة

هل للإسلام زى معين ؟ كلا . وقد توهم بعض الشباب أن الجلباب هو زى الإسلام ، وأن البدلة زى الكفار ! وهذا خطأ !

وإذا أردنا الحفاظ على « شخصيتنا » فإن ذلك يتم بصدق اليقين وشرف السيرة وسعة المعرفة ودماثة الخلق !

إن الجلباب العربى فى عواصم عالمية أمسى شارة على الإسراف السفیه والانطلاق انحنون وراء شهوات مطاعة وأهواء جامحة . !! أذلك ما يخدم الإسلام وينشر دعوته ؟

آداب المساكين

وننتقل إلى المساكين . وأسلوب المعيشة داخلها . إن الله سبحانه امتن على الناس بأن جعل لهم بيوتا يؤوون إليها ويستريحون فيها « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم .. » (٥٦) .

(٥٦) النحل : ٨٠

وظاهر من السياق أن البيوت نعمة تستوجب الشكر ، وأن بناءها عادة وعبادة معا ، وهل يستغنى البشر عن البيوت ؟ .

من أجل ذلك استغربت ما رواه الشيخان عن خباب بن الأرت وهو « إن أصحابنا الذين سلفوا ومضوا لم تنقصهم الدنيا ، وإنا أصبنا ما لا نجد له موصعا إلا التراب ... ثم يقول : إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب » !! .

وكلام خباب رضي الله عنه عليه مَسْحَةٌ تشاؤم غلبت عليه لمرضه الذي اكتوى منه ، ولا يجوز أن نعد البناء رذيلة ، فقد يكون فريضة ! .

والأصل الذي نرجع إليه في مسالكنا كلها : هو القصد الطيب المصاحب للعمل ، أو النية الطيبة الباعثة على العمل ، فإن كانت النية حسنة فالعمل صالح ، وتتحول فيه العادات إلى عبادات .

ويظهر أن كثيرا من الناس جعل من المباني إعلانا عن العظمة ، واستنطالة على الآخرين . بدل أن يجعلها مواطن استجمام وتهيؤ للعمل في أرجاء الحياة ويظهر ذلك في قول الله لثمود : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبآكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » (٥٧) ! .

ولو بنينا ناطحات سحاب وعمرنا غرفاتها بالتسييح والتحميد لتقبل الله منا ! أما بناء دار صغيرة ، والتقلب داخلها بطرا وكبرا فذاك مالا خير فيه ، وهذا مانفسر به حديث أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه » ..

والواقع أن هناك حضارات بادت ومدائن دمرت لأن مبانيها كانت

ضجيجا لا تبيّن فيه شكراً لله ولا أثارة من تقوى ! .

وفى هذه الأمم الجاحدة يساق قوله تعالى : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون » (٥٨) ؟ .

ثم قوله لمن جاء من بعدهم : « .. وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » (٥٩) .

وقد قرأت جملة أحاديث تكاد تجعل البناء جريمة ! وهى تفهم على وجهها الصحيح داخل النطاق الذى رسمناه هنا . ولا ضرورة لذكرها ..

سمعت نقداً لا ذعاً لما كتبه عن آداب المساكن يحملنى على إيراد الأحاديث التى دونها صاحب « تيسير الوصول إلى جامع الأصول » تحت عنوان كتاب البنيان .. لقد أصبحت هناك ضرورة لذكرها . فلأنقلها كاملة ، ولأترك دلائلها تنضح على النفوس ... ثم أعلق عليها بعد ذلك .

كتاب البنيان

عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بنيت بيتاً بيدى يكتنى من المطر ويظلمنى من الشمس ما أعانى عليه أحد من خلق الله تعالى . أخرجه البخارى . وفى رواية ما وضعت لبنّة على لبنة منذ قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وعن قيس بن أبى حازم رضى الله عنه . قال : أتينا خبّاب بن الارت رضى الله عنه نعوذه - وقد اكتوى سبع كيات فى بطنه - فقال إن أصحابنا الذين سلفوا ومضوا ولم تنقصهم الدنيا وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب ،

(٥٨) السجدة : ٢٦

(٥٩) إبراهيم : ٤٥

ولولا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به . ثم أتيناها مرة أخرى وهو يبني حائطاً له فقال إن المسلم يؤجر في كل شيء يُنفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب . أخرجه الشيخان .

وعن أنس رضي الله عنه . قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه . أخرجه الترمذی .

وعنه - رضي الله عنه - . قال : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً ونحن معه فرأى قبة مشرفة . فقال ما هذه ؟ قيل لفلان - رجل من الأنصار - فسكت وحملها في نفسه حتى جاء صاحبها فسلم عليه في الناس فأعرض عنه فصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب فيه والاعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه فقال والله إني لانكر نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أدري ما حدث في . فقالوا خرج فرأى قبتك فقال لمن هذه فأخبرناه فرجع الرجل إلى القبة فهدمها حتى سواها بالأرض . فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم فلم يرها فقال ما فعلت القبة فحدثوه بما كان من صاحبها . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا إلا مالا . يعني : ما لا بد منه . أخرجه أبو داود .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - . قال : مرّني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا اطين حائطاً لي من خُصّ . فقال ما هذا يا عبد الله ؟ فقلت حائطاً اصلحه . فقال الأمر أيسر من ذلك . وفي رواية ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك أخرجه أبو داود والترمذی وصححه . « الخُصّ » القصب .

وعن دكين بن سعيد المزني - رضي الله عنه - . قال : أتينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألناه الطعام فقال يا عمر اذهب فأعطهم فارتقى بنا إلى علية فأخرج المفتاح من حجرته ، ففتح ... - يعني أنه كان هناك غرفة عليا .. ! - فلا خرج من بناء غرفة عليا .

القارئ لجلة هذه الأحاديث لا يفكر في بناء دارة أنيقة ولا قصر شاهق بل

لعله يرى العيش في مدفن أقرب إلى التقوى ..

والصحيح أن هناك أحاديث ترتبط بمناسباتها وما تفهم إلا في الجو الذي قيلت فيه . ونحن في حياتنا المعتادة قد يفكر امرؤ في الزواج ويؤخر البيت لظروف عارضة ، وقد ينوى بناء بيت ثم يؤخر البناء لفتن ناشبة ! .

ومنطق الاستقرار غير منطق القلق . ولقد كانت المدينة المنورة تعانى الكثير من أعباء الدعوة والجهاد والحصار والدفاع . وكانت جمهرة الصحابة تشترك في السرايا والغزوات ، فهي بين قتال أو استعداد له ..

وقد نظرت إلى الترهيب من بناء القصور وزخرفتها من خلال هذه الملابس ، وإلا فالأصل إباحة الطيبات في المأكول والمسكن والمنكح . ولو أخذنا الأمر على عمومته ما بنيت مدينة ولا قامت حضارة ..

وأعرف من علماء السلف المعاصرين من بنى العائز الشاهقة . وأجرها لساكنيها بما يشاء من مال ، وله أن يفعل ذلك ، ولكن ليس له أن ينهى الناس عن البناء والتأنيق فيه .. !

إننى أنظر إلى حرمة استعمال الجرس فأرى أن هذه الحرمة بدأت لحماية شعيرة الأذان وبعدا عن معالم النصرانية ، فإذا استقر الأذان وارتفعت مآذنه فلا حرج من سماع جرس عند مزلق السكك الحديدية ، أو عند الاستئذان في دخول بيت أو مع الساعة الموقظة من النوم أو في جهاز الهاتف .. إلخ .

والبيت المسلم له وظائف معروفة وآداب مقررة ، ومن الخير ملاحظتها عند بنائه وإعداد مرافقه .

ولم يكن العرب في العهد الأول قد ورثوا هندسة معمارية تنسجم مع تعاليم الإسلام الجديدة . بل الذى كان يحدث أن البيوت غالبا تخلو من المراحيض ! وكان الكبار والصغار والرجال والنساء يخرجون إلى الصحراء لقضاء حاجاتهم .. !

على أن هذا الوضع المرهق قد اختفى مع استقرار المجتمع الإسلامى وانتشار صبغته على الحياة الداخلية والخارجية ! .

هناك آداب للمبيت تفرق بين الأولاد فى المضاجع وتجعل لكل منهم فراشا خاصا .

وهناك آداب للاستئذان والتلاقى تصون الهيئات والمروءات .

وهناك مظاهر دقيقة ترسى قواعد النظافة الشخصية إلى جانب الوضوء والغسل ..

ولا شك أن المسلمين أيام ازدهار حضارتهم كانوا أطهر أهل الأرض أبدانا وثيابا وأن استخدامهم للمياه فى الأغسال المتنوعة ، جعل إنسانيتهم أرقى .. أما غيرهم من الأوربيين . فكانوا دونهم مكانة وكرامة ..

وقد حرص البشر فى هذا العصر على استكمال أسباب النظافة . ونحن لانوازن بين عادات وعادات . وإنما نتعرف على مطالب ديننا . وننشئ العادات التى تنسجم معها .

وقد قرأت أن الحمام الغربى سيئ لأنه يجعل المرحاض فى المكان الذى يتم فيه الاغتسال . ولأنه يجبر الشخص على التبول قائما وهذا ما يحرمه الإسلام والإسلام لا يحرم التبول قائما . ولا مانع لديه من التنظيف أولا بالورق . ثم يزداد التطهر بالماء .

وهذا يعنى يقينا عما كان مألوفا من التطهر بالحجارة ثم بالماء أو الاكتفاء بالماء وحده ..

الإسلام دين انقطة السليمة ، وكل ما يسمو بالجسد ويوفر له السناء والجمال مطلوب

ونحن نفرض تعاليم ديننا على الناس كلهم عندما نشئ باسمه حضارة للإنسان

الذى يحترم المبنى والمعنى أو الشكل والموضوع لقوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة . ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣١) .

المِرَّ الشَّيْطَانِي
حَقِيقَتُهُ وَعِلَاجُهُ

طرق بابي رجل يقول : إنه بحاجة إلى عوفى ، فقامت لاستقباله وأنا متعب . ودهشت لمراه . فقد كان عملاقا بادی الصحة . ولم تكن عليه سيماء الفقر ! .

وبدأت بالحديث من غير مقدمات ! قال : إنه مسكون . !! واستعدتُ ما قال . فكرر شكواه مؤكدا أنه مسكون ! قلت : من مسكنك ؟ قال : جئني عات غلبنى على أمرى .. !!

فقلت وأنا أضحك : لماذا لم تسكنه أنت ؟ إنك رجل طويل عريض ؟ فسكت حائرا ..

وأخذت أتأمل في ملامحه وحالته العامة ثم قلت له : ما أظنك مريضا بالصرع . أتعتريك نوباتٌ مآ ؟ فلم يزد على القول بأنه مسكون

إن عددا كبيرا من النساء . وعددا قليلا من الرجال يَحِثْنِي بِمِثْلِ هذه الشكاة . وكنت أبذل شيئا من الجهد في تثبيت القلق ، وتسكين الحائر . وإعادة الاستقرار النفسي والفكرى إلى هذا وذاك ..

وشعرت بأن الأزمات الروحية والاضطرابات العصبية من وراء الإدعاء بأن الجن تحتل هذا الجسد . أو تحتك بهذا البائس . وربما استعنت ببعض الرقى والتلاوات والنصائح لجعل أولئك المرضى أحسن حالا . وإن تبديد أوهامهم شيء يطول

وتحدث معي بعض أهل العلم الدينى . وكأنهم رأوا إنكارى على أولئك

المرضى ، وقالوا لى : لماذا ترفض فكرة احتلال الشياطين لأجسامهم ؟ .

كان جوابي محمداً : لقد شرح القرآن الكريم عداوة إبليس وذريته لآدم وبنيه ، وبين أن هذه العداوة لاتعدو الوسوس والخناع « واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » (٦١) .

وليس يملك الشيطان فى هذا الهجوم شيئاً قاهراً ، إنه يملك استغلال المغفلين فحسب : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ... » (٦٢) .

وقد تكرر هذا المعنى فى موضع آخر : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان » (٦٣)

إن الشيطان لا يقيم عائناً مادياً أمام ذاهب إلى المسجد ! ولا يدفع سكراناً فى قفاه ليكرع الإثم من إحدى الحانات ! إنه يملك الاحتيال والخذاعة ، ولا يقدر على أكثر من ذلك ..

قال لى أحدهم : هذا صحيح لكن ما أوردته لا يبنى أن بعض المردة قد يساور بشراً مسلماً وينال منه ! قلت : وأنا ضجر : هل العفاريت متخصصة فى ركوب المسلمين وحدهم ؟ لماذا لم يشك ألماني أو يابانى من احتلال الجن لأجسامهم ؟ .

إن سمعة الدين ساءت من شيوع هذه الأوهام بين المتدينين وحدهم ! إنكم تعلمون أن العلم المادى اتسع دائرته ورسد دعوته ، فإذا كان ما وراء المادة سوف يدور فى هذا النطاق فستقبل الإيمان كله فى خطر . فلنبحث علل

(٦١) الإسراء : ٦٤

(٦٢) إبراهيم : ٢٢

(٦٣) سبأ : ٢٠ - ٢١

أولئك الشاكين بروية، ولترج أعصابهم المنهكة، ولا معنى لاتهم الجن بما لم يفعلوا...!!

وجاءني صديق يقول لى : أرى أن تسمع كلام أهل العلم في هذه القضية ! قلت : مرحبا بكلام أهل العلم ، هات ما عندك ...

قال : إن مسّ الشيطان للإنسان ثابت بالكتاب والسنة ، فأما الكتاب فقوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ » (٦٤) .

وأما السنة فقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الشيطان يحرق من الإنسان مجرى الدم » وقوله : « فناء أمتى بالطعن والطاعون وخز أعدائكم من الجن . وفى كل شهادة » وقوله : « مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسه الشيطان إلا ابن مريم وأمه عليها السلام » .

قال الشيخ منصور ناصف رحمه الله : إن الواقع من هذا كثير ومشاهد حتى إن عبد الله بن الإمام أحمد سأل والده - كما فى آكام المرجان - فقال : يا والدى إن قوما يقولون : إن الجنى لا يدخل بدن المصروع من الإنس . فقال : يكذبون ، هو ذا يتكلم على لسانه ! ثم قال الشيخ منصور : من هذا وضع الحق واستبان فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ! .

قلت : إقحام الإيمان والكفر هنا لا معنى له ، ولعله من غلو بعض المتدينين فى إثبات قضايا هامشية .. وأهل الفقه متزهون عن هذا المسلك .

إن عالم الفلك لا يعنيه أن تصبّ مجارى الإسكندرية فى الصحراء أو البحر المتوسط ، ولا يعنيه أن تمر السفن التجارية من قناة السويس أو تدور حول رأس الرجاء ...

الذى يعينى هو عقائد الإسلام وحاضر الوحي الالهي ومستقبله !.

وعندما تناقلت الصحف أن الشيخ عبد العزيز بن باز أخرج شيطانا بوذيا من أحد الأعراب ، وأن هذا الشيطان أسلم ، كنت أرقب وجوه القراء . وأشعر في نفوسهم بمدى المسافة بين العلم والدين ... إن قدر القرآن الكريم أعظم كثيرا من هذه القضايا ..

ونعود إلى مذكره صديقنا من أدلة على أن الشيطان يسكن جسم الإنسان ويؤثر فيه بما يشاء !.

أما الآية الكريمة : « ... لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فجمهور المفسرين على أن ذلك يوم الجزاء ، وسبب هذا التفسير أن أحدا لم ير أكلة الربا مصروعين في الشوارع توشك أن تدوسهم الأقدام !

ومن ثم جعلوا ذلك عندما يلقون الله فيحاسبهم على جشعهم وظلمهم .

ونقل الشيخ رشيد عن البيضاوى في هذا التشبيه أنه وارد على مايزعمون من أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط ضربٌ على غير اتساق كخبط العشواء ..

ثم قال صاحب المنار : « فالآية على هذا لا تثبت أن الصرع المعروف يحصل بفعل الشيطان حقيقة ولا تنفى ذلك وفي المسألة خلاف بين المعتزلة وبعض أهل السنة أن يكون للشيطان في الإنسان غير ما يُعبر عنه بالوسوسة . وقال بعضهم : إن سبب الصرع مسّ الشيطان كما هو ظاهر التشبيه وإن لم يكن نصا فيه . وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التى تعالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديثة . وقد يعالج بعضها بالأوهام ... الخ .

أما حديث أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فإن القصة التى ورد

فيها تشرح المراد منه ! قالت صفية - زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان رسول الله معتكفا . فأتته أزوره ليلا . فحدثته ، ثم قمت إلى بيتي . فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - يمشي معي مودعا - وكان مسكنها في دار أسامة ابن زيد ، فررجلان من الأنصار . فلما رأيا النبي - صلى الله عليه وسلم - أسرعا ! فقال لهما : على رسلكما - أى تمهلا - إنها صفية بنت حيي ! قالوا : سبحان الله يا رسول الله ! قال : «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم . فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا أو قال شرا ..»

وظاهر من الحديث أن الرسول يريد منع الوسوسة التي قد يلقيها الشيطان عندما يرى مثل هذا المنظر ، ومع أن الصاحبين أنكرا واستعظما أن يجري في نفسها شيء من ظنون سوء بالنسبة للمعصوم عليه الصلاة والسلام ، فإن النبي أراد منع هذه الوسوسة .

ولاصلة للحديث باحتلال الشيطان لجسم الإنسان ..

وأما الحديث الآخر وهو أن الطاعون وخز الجن وهم أعداء البشر فيكفينا في شرحه صاحب المنار عندما قال : يرى المتكلمون أن الجن أجسام حية خفيفة لا ترى . وقد قلنا غير مرة : إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى « بالميكروبات » يصح أن تكون نوعا من الجن وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض . قلنا ذلك في تأويل ماورد من أن الطاعون من وخز الجن . على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبتته العلم وقرره الأطباء أو إضافة شيء إليه مما لا دليل في العلم عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الأحادية .

ونحمد الله على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم ..

ونجىء إلى حديث نخس الشيطان للإنسان كما يذكر الرواة . ! ونقول :

خيّل إلى أن الشيطان قابع تحت الرحم يستقبل الوليد القادم وهو شديد

الحقد . يقول له : إن قصتي مع أبيك الأول لم تنته بعد . وسأحاول إرهابك كما أرهقته .

ثم ينخسه نخسة يصرخ الوليد الساذج منها . ثم يستقبل بعد ذلك حياته خارج الرحم .

وقد اقترب الشعراء من هذا المعنى عندما قال قائلهم :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد !
وقد كانت أم مريم بادية القلق عليها عندما استجارت بالله أن يصونها ويصون ذريتها « وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » (٦٥) ومريم وابنها على أية حال من عباد الله الصالحين ، وليس للشيطان سلطان على أولئك العباد .. !

وننظر إلى الموضوع من خلال أقوال العلماء المحققين ، قال صاحب المنار :
« في حديث أبي هريرة عند الشيخين وغيرهما واللفظ هنا لمسلم » كل بني آدم يَمَسُّهُ الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها « فسر البيضاوي المسّ هنا بالطمع في الإغواء ! وقال الأستاذ الإمام : إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة ولعل البيضاوي يرمى إلى ذلك . ! قال الشيخ رشيد : والحديث صحيح الإسناد بغير خلاف ، ويشهد له من وجه حديث شق (٦٦) الصدر وغسل القلب ، بعد استخراج حظ الشيطان منه ، وهو أظهر في التمثيل ، ولعل معناه أنه لم يبق للشيطان نصيب ، في قلبه ولا بالوسوسة كما يدل على ذلك قوله في شيطانه « إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » وفي رواية مسلم « فلا يأمر إلا بخير » .

ثم قال صاحب المنار رضى الله عنه : المحقق عندنا أن ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين وخيرهم الأنبياء ، والمرسلون ! وأما ماورد في

(٦٥) آل عمران : ٣٦ .

(٦٦) ارجع إلى كتابنا فقه السيرة ، وقد شغب عليه بعض القاصرين .

حديث مريم وعيسى من أن الشيطان لم يمسهما وحديث إسلام شيطان النبي - صلى الله عليه وسلم وحديث إزالة حظ الشيطان من قلبه فهو من الأخبار الظنية . لأنه من رواية الآحاد . ولما كان موضوعها عالم الغيب ، والإيمان بالغيب من قسم العقائد . هي لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى : « وإن الظن لا يغني من الحق شيئا » ^(٦٧) كنا غير مكلفين أن نؤمن بمضمون هذه الأحاديث في عقائدنا .

وقال بعضهم : يؤخذ فيها بأحاديث الآحاد لمن صحت عنده ! ومذهب السلف في هذه الأحاديث تفويض العلم بكيفيتها إلى الله تعالى . الخ .

ومع أن مذهب السلف أحب إليّ إلا أن مدافعة أعداء الإسلام تقتضي مزيدا من الحذر واليقظة . ولست أحب أن أفتح أبواب الشعوذة والسحر والدجل باسم أن الشيطان احتلّ بدن إنسان ..

وقد قبضت الشرطة من أيام علي رجل ظل يهوى على أحد المرضى بعصاه حتى أحمق أنفاسه . وكان الأحمق يظن أنه يضرب الشيطان ليخرج . وكان يقول له : اخرج عدو الله ! وانتهت المأساة بقتل المريض البائس .

وما يرويه صاحب «آكام المرجان في أحكام الجان» أكثره خرافات وخيالات ، وإن ذكره ابن حنبل وابن تيمية وغيرهما !.

نحن نعلم أن الأرض التي نسكنها هباءة صغيرة في كون ضخم فخم بضج بالحياة والأحياء ! نعم قد تكون أرضنا حبة رمل على شاطئ الوجود الرحب الذي تحتق أبعاده عن وهما !!! .

ونحن نشعر بسعة الملكوت عندما نتابع مباحث الفلكيين ، وقطرات من المعارف التي ترشح عليهم من إدمان النظر في الفضاء ..

(٦٧) النجم : ٢٨

ونستطيع الحكم بأنه من الحماقة الظن بأننا وحدنا الأحياء في هذا الوجود الكبير !! إن الذي يبنى ناطحة سحاب لا يدع الريح تصفر في جنباتها مكثفيا بإسكان غرفة في سرداب منها ..

إن العالم مشحون بالأحياء التي خلقها الله لتدلّ عليه وتشهد بمجده . ومن غرور البشر أن يحسبوا أنفسهم الحياة كلها .

ومع النظر في القرآن الكريم ندرك تلك الحقيقة . يقول الله تعالى : « وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون » ويقول « ومن آياته خلق السموات والأرض . وما بث فيها من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » .

والآيات كثيرة ، ومنها نعلم أن أبناء آدم نوع من المخلوقات ، وليسوا المخلوقات كلها ... هناك الملائكة ، ولا نتحدث الآن عن وظائفهم ! وقد تكون هناك كائنات أخرى لا ندري شيئا عن سيرتها أو مصيرها . وهناك عالم الجن الذي نومي هنا إلى بعض سماته .

إن القرآن الكريم حدثنا عن الشيطان الأكبر إبليس عدو آدم وبنيه ! وحدثنا عن الجن مبينا أنهم يأكلون وينسلون ويكلفون وأن فيهم المؤمن والكافر والتقي والفاجر .

وقد علمنا أن الجن لهم حياتهم الخاصة بهم . وأنهم أشدّ منا قوة ، وأنهم يروننا ولا نراهم ! ومع ذلك فإن رجالا من البشر أمكنهم الله من تسخير الجن كسليمان الذي جاء في وصف سلطانه « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه . ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات .. إلخ .

وفي هذا السياق كشف القرآن الكريم عن أن الجن لا يعلمون الغيب ، وأن هوايتهم في إغواء أبناء آدم لا تتعدى المكر النسيى واستدراج المغفلين . ولذلك قال في وصف العصاة من البشر « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا

من المؤمنين ، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك .. » .

تدبر هذه الجملة « ما كان له عليهم من سلطان » لتعلم حدود قدرته على الإيذاء ! .

هل الجرائم الحفية من عالم الجن ؟ لا يستبعد صاحب المنار هذا ! مستشهدا بالحديث في سبب الطاعون ، وقد يكون رأيه صحيحا ! وقد يكون الجن الواعون الخبثاء أصحاب بصر بعالم الجرائم وأصحاب قدرة في إصابة البشر بهذه الجرائم وما تحمل من علل !! .

ولعل مطالبة المؤمنين بالتعوذ من الجن في أوقات وأماكن معينة ما يشهد لذلك . فالمسلم مكلف عند الذهاب إلى الخلاء أن يقول : « أعوذ بك من الخبث والخبائث » ! وعندما يتصل بزوجه أن يقول : « اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا » .

ولا أحب أن أمضى في طريق غامضة المعالم ! ولا أن أشغل المسلمين بأمور توافه ، ويضتهم مستباحة وحدودهم محتاجة !! .

إن هناك قسما في الأديرة يزعمون أنهم يسخرون الجن . وهناك رجال منا يرددون الدعوى نفسها ..

والفرصة أمام الخرافيين موجودة ليبضوا ويفرخوا !! ولا يجوز أن ننسى قول الله لكل مسلم « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

إن المسلم الحق يخاصم الأوهام ويصادق اليقين ولا تستغفه ترهات المرضى .. قرأت هذا الحديث ثم استغرقتي الفكر عن عطاء بن أبي رباح ، قال في ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : هذه المرأة السوداء أنت النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقالت إني أصرع وأتكشف فادع الله لي !

قال : إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك ! قالت :
أصبر ، فادع الله لي ألا أتكشف ، فدعا لها ..

هذه امرأة مصابة بالصرع آثرت أن تموت به ضامنة الجنة كما بشرها رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - .

وكل ما أحبته ألا يتكشف بدنّها في أثناء الغيبوبة التي تتأبها . وقد تكفل لها
النبي بذلك .. قلت : لو كان مرضها من شيطان يركبها أكان النبي الكريم يتركها
صريرة هذا اللعين ؟ ما أظن .. ! .

ماذا يقع لو كان المرأة من أهل هذا العصر ؟ ربما عولجت بالصدمات
الكهربية لنشفي ! ربما قال بعض الناس : يسكبها شيطان . وظلوا يصربونها حتى
يخرج الشيطان المزعوم منها ، وربما خرجت روحها مع الضرب المبرح ...

ليس لدى مانع من مناقشة الموضوع كله بفكر معتدل مفتوح ! أما الذي
أرفضه بقوة فهو إقحام الإيمان والكفر في الموضوع كأن الدين سلوك مجنون ، أو
نزوع مجنون !! .

الخطأ والنصواب هنا في تشخيص مرض . وقد أستبعد ما يصدقه الآخرون
دور حرج وأنا أريد حماية أمتنا من الشعوذة ، والتخائم ، وحروف الجمل ، وأرقام
الحروف وحساب الطوالع . وصداقة الأشباح وتسخير الجان .. إنخ .

المرض الحقيقي عند قوم يهتمونك بأنك تنكر الجنّ وعالم الغيب ، لأنك
ترفض أوهامهم ، أولئك بلاء على الإسلام .

والناس في عصرنا يعانون من الوحشة والإرهاق . وقد لقيني فتيان وفتيات
يشكون من مسّ الشيطان وكدّ الأعصاب . وهم بحاجة إلى مُربّين رحماء

وفي أقطار أوربا وأمريكا يقوم الأطباء النفسيون بدور كبير في علاج هذه
المآسى بيد أن أغلب هؤلاء الأطباء من مدرسة « فرويد » وهو رجل معتل

الفكر طافح الشهوة ، ووصايا هذه المدرسة تدور على محاربة الكبت ، وإرخاء العنان للنفس ! .

والكبت الدائم قد يكون سبب بلاء ، ولكن الكبت الموقوت دعامة التربية والترقى .. والتفرقة بين الأمرين لا يعرفها عديمو الإيمان تاركو الصلوات ، أحلاس الشهوات .

وهناك شيء كان أولى بالمتدينين أن يعرفوه ويعرفوا الناس به . ذاك أن شياطين الإنس والجن تنتشر في كل مكان . وتحاول الإيقاع بكل إنسان ، والاستعاذة منها واجبة ونافعة ! .

وقد أمر الله بها نبيه « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » (٦٨) .

وكان رسول الله يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ، ونفخه ونفثه » (٦٩) . ومن أدعيته : اللهم إني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق . وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت »

هذا المسلك أفضل من إشاعة سكتى الشيطان لبدن الإنسان والاحتتيال على طرده بشتى الأوهام .

(٦٨) المؤمنون : ٩٧ . ٩٨

(٦٩) الهمز الدفع إلى العصيان . والنفخ إلى الكبر . والنفث إلى الفلق

فَقِّهِ الْكِتَابَ أَوَّلًا ...

أحاديث حرّفت عن مواضعها أو جهل معناها - القتال في
الإسلام - الأمة ليست على مستوى الدعوة الناجحة -
أحاديث الزهد ... - جهالة بعض المتحدثين في السنة هذه
الأيام

تلاوة قبلة للقرآن الكريم ، وقراءة كثيرة للأحاديث ، لاتعطيان صورة دقيقة للإسلام بل يمكن القول بأن ذلك يشبه سوء التغذية . إذ لابد من توازن العناصر التي تكون الجسم والعقل على سواء .

ولنضرب أمثلة متدرجة من الخفيف إلى الدقيق : يرى الصعاني أن النذر حرام . معتمدا على حديث ابن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى عن النذر ! وقال : « إنه لا يأتي بخير . وإنما يستخرج به من مال البخيل » .

والنذر الذي لا يأتي بخير هو النذر المشروط الذي يشبه المعاوضات التجارية . يقول الإنسان : لله عني كذا إن شفيت من مرضي أو إن نجح ابني الخ

أما النذور الأخرى في طاعة الله فلاحرج فيها . مادامت من الناحية الفقهية صحيحة

والسؤال : كيف يحكم بأصل الحرمة في النذور كلها مع قوله تعالى في وصف الأبرار « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا » ^(٧٠) ؟ وقوله في موضع آخر « ثم ليقتضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » ^(٧١) .

وقد رأيت الخهل بالقرآن الكريم يبلغ حداً منكورا عند شرح حديث مسلم

(٧٠) الإنسان : ٧

(٧١) الحج : ٢٩

« كل ذى ناب من السباع فأكله حرام » فإن شارح الحديث زعم أن الحديث قيل في المدينة المنورة ، وأنه نسخ مانزل بمكة من قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ... » (٧٢) .

والزعم بأن حديث آحاد ينسخ آية من القرآن الكريم زعم في غاية الغثاءة ! ثم إن الآية التي قيل بنسخها تكرر معناها في القرآن أربع مرات ، مرتين في سورتي الأنعام والنحل المكيّتين . ومرتين في سورتي البقرة والمائدة المدنيّتين !! ، بل ما جاء في سورة المائدة هو من آخر مانزل من الوحي !! .

فكيف يفكر عاقل في وقوع النسخ ؟ ثم إن عدداً من الصحابة بينهم ابن عباس . وعدداً من التابعين فيهم الشعبي وسعيد بن جبير . رفضوا حديث مسلم . ! فكيف نترك آية لحديث موضع لغط ؟ .

ولندع ما ذكرنا إلى حديث يدخل في دائرة القانون الدولي بلغة العصر . عن عبد الله بن عون كتبت إلى نافع رحمه الله أسأله عن الدعاء قبل القتال - ويقصد بالدعاء دعوة الناس إلى الدخول في الإسلام قبل المعركة - قال عبد الله فكتب إليّ « إنما كان ذلك في أول الإسلام وقد أغار النبي - صلى الله عليه وسلم - على بني المصطلق وهم غارون .. » .

ونافع - غفر الله له - مخطئ ! فدعوة الناس إلى الإسلام قائمة ابتداءً وتكراراً . وبني المصطلق لم يقع قتالهم إلا بعد أن بلغتهم الدعوة . فرفضوها وقرروا الحرب !

ورواية نافع هذه ليست أول خطأ يتورّط فيه . فقد حدّث بأسوأ من ذلك ! .

قال : كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »...^(٧٣) فقال : تدرى فيم نزلت هذه الآية ؟ قلت : لا .. قال : نزلت في رجل أتى امرأته في دبرها ، فشق ذلك عليه ! فنزلت هذه الآية !! .

قال عبد الله بن الحسن : إنه لقي سالم بن عبد الله بن عمر ، فقال له : يا عم ، ما حديث يُحدثه نافع عن عبد الله أنه لم يكن يرى بأساً بإتيان النساء في أدبارهن ! فقال : كذب العبد وأخطأ . إنما قال عبد الله : يُؤْتُونَ فِي فُرُوجِهِنَّ مِنْ أَدْبَارِهِنَّ ..

ونعود إلى رواية نافع وهي عدم الدعوة قبل القتال ونقول : إنه مع اهتزازها فإن أهل الحديث - لقلّة فقههم - روجوا لها حتى جعل الصنعاني عنوان الموضوع « الغارة بلا إنذار »!^(٧٤) .

غارة بلا إنذار ؟ أين هذا المسلك من قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »^(٧٥) وقوله : « فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون »^(٧٥) ! .

والغريب أن الشيخ ناصر الألباني - وهو من أعلم رجال الحديث في عصرنا - عتب عليّ أني تركت رواية نافع ، وآثرت عليها روايات أخرى وأنا أصوّر طبيعة القتال في الإسلام !!

في كتابي « جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج » أحصيت أكثر من مائة آية تتضمن حرية الدين ، وتقيم صروح الإيمان على الاقتناع الذاتي ، وتقضي الإكراه عن طريق البلاغ المبين .

(٧٥) الأنبياء : ١٠٩

(٧٣) البقرة : ٢٢٣ .

(٧٤) الأنفال : ٥٨

(٥) هذا العنوان من وضع محرر الكتاب استفادة من جوهر الموضوع ، ولالوم عليه ..

وليس في تاريخ الثقافة الإنسانية كتاب ينشئ العقل المؤمن إنشاء ،
ويعرض آيات الله في الأنفس والآفاق لتكون ينابيع فكر يتعرف على الله ،
ويستريح إلى عظمته كما وقع في هذا القرآن ...

ومع ذلك . فنحن المسلمين يوجد بيننا من ينسى هذا كله ليقف عند راو
تائه يزعم أن الدعوة إلى الإسلام كانت في صدر الإسلام ثم ألغيت ! ومن
ألغاه ؟ .

إنه لأمر ما ، يحىء بختام خاص لسورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة ،
يقول عن الكافرين : « فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم » (٧٦) أفى هذا الختام راحة إكراه ؟ .

إن الإيمان أساس ، والجهاد حارس ، وستبقى الحراسة فريضة قائمة مابقي
في الدنيا من يهدد الأمان ، ويستنكر الإيمان ؟ .

ومعنى هذا أن الجهاد وسيلة وليس غاية ويوم تسود الحريات أرجاء
الحياة . وتنمو أعواد التوحيد فلا يرى من يكسرها أو يحرقها . فلا قتل
ولاقتال : نعم ! لاقتال حيث تستخفى الفتن وتشيع العدالة .

ذلك هو ديننا كما تشرحه آيات الكتاب العزيز . ويظهر في السيرة النبوية
المباركة ..

وفي أربعة مواضع متشابهة من القرآن الكريم كانت وظيفة الرسالة الخاتمة :

١ - تلاوة الوحي . أو قراءة المنهاج الذي يسير عليه المسلمون أو تحديد
النطاق الذي يعملون داخله .

٢ - تربية الأمة بتنمية ملكاتها الطيبة وكبح غرائزها الجامحة .

(٧٦) التوبة : ١٢٩ .

٣ - تقرير الأحكام التفصيلية التي جاء بها الكتاب نظاما للفرد والمجتمع والدولة ، وهي أحكام مقرونة بالحكمة والسداد .

هذه الأثلاث الثلاثة هي عناصر الرسالة التي نهض بها كبير الأنبياء ، وأحيى بها مواريث من سبقوه وأغنى بها العالم عن الفلسفات الأرضية والأهواء البشرية !! .

وقد ذكرت ثلاثتها (٧٧) عند البشارة بالبعثة الأخيرة لما دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما بإرسال محمد .

وذكرت كلها مرة ثانية (٧٨) عند جعل المسجد الحرام قبلة الناس في المشرق والمغرب . فكان اتجاه البشر إلى الكعبة نعمة أخرى على العرب بعد ابتعاث النبي منهم ، فكان تشريفا لأرضهم بعد تشریف جنسهم .

وذكرت مرة ثالثة (٧٩) بعد هزيمة أحد وانكسار قلوب المؤمنين وحاجتهم إلى ما يجبرها ويعيد الثقة إليها وذلك في سورة آل عمران . التي واست المهزومين وذكرتهم برسالتهم ..

وذكرت مرة رابعة (٨٠) عند كشف السر في إقصاء اليهود عن ميدان التربة

(٧٧) البقرة : ١٢٩

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .

(٧٨) البقرة : ١٥١ - ١٥٢

«كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَادْكُرُونِي أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» .

(٧٩) آل عمران : ١٦٤

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» .

(٨٠) الجمعة : ٢ ، ٣ ، ٤

«هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم تَلْوَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ

الدينية . وإبعادهم عن رسالات الله . وإحلال العرب محلهم ، بعد فشل بني إسرائيل في هذه الساحة .

تلك هي رسالتنا تحت عناوينها الرئيسة ! وما من شك في أن الجهاد حق لتأمين الدعوة وهزيمة الفتّانين ! .

فأما تصوير الإسلام بأنه يتحرش بالآخرين ويتعطش لدمائهم فهو افتراء على الله والمرسلين ، ومع أننا أشبعنا هذا الموضوع بحثا في كتبنا الأخرى فإن الحاجة إلى الكلام فيه لاتزال ماسة . ذلك أن حديث الإفك لاينقطع !! .

وفي هذه الأيام النحسات شاعت الخلافات في أرجاء الأمة وقتل بعضها بعضا . بل إن حصيلة القتلى في الفتن الداخلية أربى من القتلى في محاربة الاستعمار الصليبي العائد المتحالف مع اليهود والناقيين ..

والحكومات الإسلامية على الإجمال دون مثيلاتها من حكومات العالم عدالة ونزاهة .

والجماهير أقل ثقافة وإنتاجا واقتدارا على الحياة وتكاليفها .

والتقاليد السائدة تبعد عن الإسلام الحنيف روحا ونصا .

فأمتنا من أفقر أُمم الأرض إلى التعليم والتربية ومعرفة الذات .

وفي هذه الآونة استخرج البعض حديث « بعثت بالسيف بين يدي الساعة . وجعل ردي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري .. » .

قلت : ليت لكم سيفا يحمي الحق . ويرد عنه العوادي ! فإن الحق يغرق وليس له صريخ ! .

كما من قبل لو ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ليت لكم رحما ترتقون في ظله ، إنكم تسؤلون أرزاقكم من غراس
عدوكم ، وهو الذى يصنع السلاح الذى تشترونه بالغالى والرخيص لأغراض
يعلمها الله ! ..

مالكوم ولهذا الحديث ؟ قال لى غلام متعالم : إنه يردّ كل ما نقول .. !

قلت : سأتجاوز عن ضعف هذا الحديث من ناحية سندّه . ولن أظعن في
صحته - مع أن الطعن وارد - ولكنى أسأل : لماذا لاتعلمون الدين وتحسنون
فقهه والعمل به ، ثم تحسنون الدعوة إليه ؟ عندما يراكم العالم أدنى مستوى
منه فلن يسمع منكم ولن يرتضىكم قادة له ، لايحوز أن يكون الإمام أجهل
من المأموم ! ..

ماوظيفة السيف في أيديكم وأنتم متظالمون ؟ جائرون عن سبيل الرشاد؟.

وتذكرتُ أن « لينين » الحاكم الأول للشيوعية ، وناقلمها من الميدان
النظري إلى ميادين السياسة ، ألف كراسة عن اليسار الطفولى أو الطفولة
اليسارية ، نعى فيها على جيل من الناس يرفع شعار الشيوعية ولايحسن
خدمتها !! .

قال : « هذه طفولة ، والطفولة تتميز بالقصور والعناد » وقد طردها من
ميدان العمل حتى تستطيع الشيوعية الانطلاق دون عائق ..

وليت القباد بقى في يد الأطفال ! إذن لاخفت الشيوعية من زمان طويل
بفضل الأصدقاء الجهلة ! .

واليوم توجد طفولة إسلامية تريد الانفراد بزمام الأمة ، وعندما يسمع أولو
الألباب حديثها يطرقون محزونين !! .

والخيف أنها طفولة عقلية تجمع في غمارها أرباب لحن ، وأصحاب هامات

وقامات !! يقعون على أحاديث لا يفهمونها ثم يقدمون صورة للإسلام تشير
الانقباض والخوف ...!

إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - تكلم كثيرا وكلامه موضع الإعزاز والطاعة .
« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله .. » وكان يمكن أن تعرف مرامي الكلام
وحقائقه لو ضبظت الملابس التي قيل فيها ...

وأيّا ما كان الأمر فإن إطار القرآن الكريم ضابط دقيق إذا عزّت معرفة
الملابس .

ونحن نلاحظ أن القرآن أطال الحوار مع مخالفه . وافتن قبل أى شيء فى
بسط براهينه على صدق عقائده . وشرف عباداته . وجدوى مايدعو إليه من
عمل صالح وغايات كريمة ..

وفى طول الشّور وعرضها مناشدة حارة للإنسان أن يرعوى ويثوب إلى
رشده ويتوب إلى ربه

ولم تبدأ سياسة العصا الغليظة إلا بعد أن أوجعت عصي الأعداء جلود
المؤمنين، وكسرت عظامهم. هنا نزل قوله تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم
ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير» (٨١).

وأنبأ الله على اختلاف الليل والنهار خاضوا أشرف قتال يمكن أن يقع
على ظهر الأرض ! والقول بأن فرعون كان أولى بالحق من موسى . أو أن
اليهود كانوا أولى بالنصر من عيسى . أو أن خصوم محمد كانوا أولى بالبقاء منه
قول عاهر منكور . لا يصدر من صاحب دين أو خلق !.

المهم أن المتمين إلى الله يحسنون أولا الدعوة ويوفرون فرص السلام

والمصالحة . وبقدرتون أخطاء الطباع البشرية فإذا أجنثوا بعدئذ للقتال كانوا رجالا ، وكانوا كراما ..

وهذا ما فعله محمد - عليه الصلاة والسلام - وعرف في سيرته بوضوح ، وقد لخصه شوق في كلمات موجزة :

الحرب في حقّ لديك شريعة ! ومن السموم الناقعات دواء !!

فإذا جاء مسلم قصير الرؤية . وكان أول ما يذكره في معاملة أعداء الإسلام الحديث المعروف « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله .. » كان إنسانا ممن يحرفون الكلم عن مواضعه . ويتعاملون بغباء شديد مع تراث النبوة ..

وقد شرحنا في كتاب آخر أن الحديث قيل مع نزول سورة براءة . قبل وفاة الرسول بنحو عام . وبعد جهاد رهيب مع وثنيات أعطاهها الإسلام حق الحياة . ولم تعطه إلا الموت ! ، وعاش معها دهرًا على مبدأ « لكم دينكم ولي دين » فلم ير منها إلا الغدر والاغتيال ! .

وكان آخر ما صنعت لتعيد الليل إلى جزيرة العرب أن كذابا اسمه « مسيلمة » قام بحركة ردة مزعجة لم يطفئها حُفاظ القرآن إلا بدمائهم . ففتنوا في إطفائها حتى كادوا يبيدون . وحتى خيف من انقراض الحفظة بعد العدد الكبير الذي استشهد منهم !!

وصدر سورة براءة يعطى صورة كاملة لهذه الوثنية الخائنة الجريئة . وفي هذا الجوّ قيل هذا الحديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ... » فلا يجوز لجاهل أن يعدو به مكانه ! .

هل قيل يوم صعد الرسول الصفا غداة أرسل وشرع يذكر الجاهليين بالبعث ويدعوهم إلى التوحيد ؟ .

هل قيل يوم عاد كسير القلب من الطائف ، ودخل مكة في جوار مشرك ؟
هل قيل يوم اختفى في الغار ليضلل مطارديه ويطلب الحياة لنشر الدعوة في أرجاء الجزيرة ؟

هل قيل يوم أعطى الناس في المدينة المنورة حق اللحاق بمشركى مكة وترك الدين إذا استبهظوا تكاليفه ؟

والحمد لله لم يرتد أحد ، ولم يلحق بالمشركين رجل ولا امرأة ! بل الذى حدث هو العكس ..

هل قيل في عمرة القضاء . قبل فتح مكة بعام ، وهو يطوف بالكعبة وحولها مئات الأصنام فلم يكسر منها صنما ! ولم ينقض للمشركين عهدا ؟

إن أهل الفقه هم الذين يتحدثون عن الإسلام . ويشرحون المرويات التى حفلت بها الكتب ووقع عليها الدهماء كما يقع الذباب على العسل .

وقد كان أهل الفقه قديما هم المتحدثين عن الإسلام . وأعرف الناس بتراث النبوة ..

وأنا وغيرى من المشتغلين بالدعوة الإسلامية ننظر باهتمام بالغ إلى أحوال الناس وراء دار الإسلام . ننظر إلى التيارات الفكرية التى تسودهم والمذاهب الخلقية والدينية التى تؤثر فيهم وأنصبة الحضارة التى حصلوا عليها ، ومقادير الإنتاج التى يصدرونها للعالم .. الخ .

وكيف نحسن الدعوة إذا لم نعرف ذلك كله ؟ وقد قرأت كلمة للأستاذ أحمد بهاء الدين يشرح فيها شيئا من ذلك ، رأيت أن أسجلها هنا . قال :

« بعض القراء يرانى معجبا بالمجتمعات الأوروبية والأمريكية عندما أتحدث عنها في رحلاتى . وهذا صحيح ! لكننى كذلك أكره فيها أشياء أخرى . ترى ما الذى أؤثر نقله إلى الناس في بلدى ؟

البعض يفضل أن أنقل نقاط الضعف في المجتمعات الأخرى ! وهذا خداع للنفس . وإرضاء لغرور كاذب . واستئناس إلى أننا أحسن من غيرنا . وتلك غيبوبة باهظة الثمن .. !

نحن هنا نحب أن نتكلم عيوبنا وأمراضنا ! أما هناك فهم يسرعون إلى مناقشة أمراضهم الاجتماعية علانية ومصارحة !! ولذلك يستشفون منها . على حين يبقى المرض لدينا كامناً ..

ومالانراه أو مالانتشره يُعدُّ كأنه غير موجود . وذلك بلاء مجتمعات الكتان . لاتزال تتافق حتى تهلك !

وقد تخطى غيرنا هذا الطور . وشرع يناقش أخطائه بقوة المخدرات - الخمور - تصبح مشكلة قومية رسمية وشعبية ! و « الإيدز » تتفجر أنبأؤه بمجرد ظهوره كالقنبلة على حين نسمى نحن « الكوليرا » حين تظهر بأمراض الصيف ! ويمضى كل شيء في هدوء ! .

وهناك أمر آخر الانكليز يعتبروننا كسالى لأنهم يعملون من الصباح إلى المساء . والأمريكان يعتبرون الانكليز كسالى ، لأن الأمريكي يعمل ضعف الإنكليزى . ولايقطع يوم العمل بشرب البيرة ! ومن يرى الأمريكي أو الأمريكية يعملون يظن أنهم شعب فقير يبنى مستقبله بالكدح والكفاح . مع أنهم أغنى الشعوب ! .

والآن ظهر اليابانيون يتهمون الأمريكيين بالكسل ! . والأمريكان في ذعر من « مرض » العمل والاجتهاد والتفانى لدى اليابانيين . إنهم يعتبرونهم مرضى لعدم وجود أى متعة يرفهون بها عن أنفسهم . ولذلك يرون المنافسة غير عادلة بين الشعبين الكبيرين ... هذا هو العالم الذى يتقدم من حولنا .

ويلفتنى بقوة شيوع القيم التى لا تحتاج إلى عملة صعبة . ولكن لها ثمارا يانعة . أو مردودا هائلا .. النظام . احترام الدور والقواعد العامة للحياة

النظافة التامة فلا نجد من يلقي ورقة على الأرض .

ثم قال الأستاذ أحمد بهاء الدين : « شكالى سائح أمريكي - ونحن في روما - من قذارة الايطاليين ، لأنهم ينزلون من السيارات - الحافلات - ويلقون نذاكر الركوب على أرض الشارع .. » [انتهى كلامه] ونقول :

هذه أنباء السباق الحضارى بين الدول الصناعية في أوروبا وأمريكا وشرق آسيا ! ترى ما أخبار العرب والمسلمين في هذا الميدان ؟ الأخبار المؤكدة أننا شعوب مستهلكة لامتجة وأنا نأخذ أكثر مما نعطي ..

ويستحيل أن تنجح رسالة كبرى يوم يكون حملتها في هذا المستوى ! إن امتلاك الحياة الدنيا عن قدرة وخبرة هو السبيل الأوحى لنصرة المبادئ والمذاهب ..

ويوم اشتبك المسلمون الأوائل مع الدولتين العظميين الروم والفرس كانوا أحق بالنصر لأنهم نازلوا أعداءهم في الميادين التقليدية المعروفة ، وحملوا ذات الأسلحة . وتفوقوا عليهم بالإيمان الحق وتأيد الله ...

ثم وقع في عصور التخلف الحضارى أن انسحب المسلمون انسحابا عاما شائنا من آفاق الحياة ، وسيطرت عليهم أفكار غريبة .. فهموا أن الاستعلاء على مغريات الدنيا يعنى ترك الدنيا ، وأن النجاح في الامتحان يكون بالفرار منه لا بالدخول فيه واجتياز مشقاته ...

ونسيت تعاليم القرآن التى تقرر أن الأرض مخلوقة للناس ، وأن التمكين فيها جزء من رسالة الحياة الأولى والأخرى وحلت محل هذه التعاليم أحاديث تغرى بالفقر والتجرد .

ومع أن هذه الأحاديث عند التأمل تخالف أحاديث أخرى أصح منها سنداً وممتناً ، وقبل ذلك تخالف منطق القرآن الذى يجعل الجهاد ركناً لحراسة الإيمان

ونظمه وشعبه . مع ذلك فإن هذه الأحاديث وجدت رواجاً وسيطرت على الجماهير الكثيرة .

قرأت خمسين حديثاً ترغب في الفقر وقلة ذات اليد وما جاء في فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومجالستهم كما قرأت سبعة وسبعين حديثاً ترغب في الزهد في الدنيا والاكتفاء منها بالقليل وترهب من حبها والتكاثر فيها والتنافس .. وقرأت سبعة وسبعين حديثاً أخرى في عيشة السلف وكيف كانت كفافاً ..

ذكر ذلك كله المنذرى في كتابه الترغيب والترهيب وهو من أمهات كتب السنة . ورحم الله المؤلف الحافظ وغفر لنا وله ، فهو حسن النية ناصح للأمة . بيد أن الفقه الصحيح يقتضى منهاجاً آخر . ومسلماً أرشد ..

وأعرف ويعرف غيرى أن عبادة الدنيا أهلك الأولين والآخرين وأنها من وراء جرائم مذهلة يقتربها الخاصة قبل العامة ، والرؤساء قبل الأتباع والأدكياء قبل الأغنياء ، ولكن العلاج الصحيح للداء العضال يكون بالتمكن من الدنيا والاستكبار على دنائها ..

املك أكثر مما ملك قارون من المال ، وسيطر على أوسع مما بلغه سليمان من سلطات ، واجعل ذلك في يدك ، لتدعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعم . وتتركه لله في ساعة فداء حين تحين المنية !! أما أن تعيش صعلوكاً ، حاسباً أن الصعلكة طريق الجنة فهذا جنون وفتون .

إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتمكين في الأرض ، فإن انصرافك عن التمكن من الأرض فاحشة أشد من الزنا والربا ..

ولنناقش بعض ما روى في هذا المجال لنعرف ما وراءه : عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، اشنكى سلمان الفارسي - في مرض موته - فعاده سعد بن أبي وقاص ، فرآه يبكى ، فقال له سعد : ما يبكيك يا أخى ؟ أليس قد صحبت

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ أليس ؟ أليس ؟ ..

قال سلمان : ما أبكى واحدة من اثنتين . ضئاً على الدنيا ولا كراهية
للآخرة ، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد إلينا عهداً ، وما أرانى
إلا قد تعدّيت !! .

قال سعد : وما عهد إليك ؟ قال عهد إلينا أنه يكفي أحدكم مثل زاد
الراكب ! ولا أرانى إلا قد تعدّيت ! وأما أنت ياسعد فائق الله عند حكمك إذا
حكمت ! وعند قسمك إذا قسمت ! وعند همك إذا هممت ! .

قال المنذرى : وقد جاء فى صحيح ابن حبان أن مال سلمان جمع بعد
وفاته - فبلغ خمسة عشر درهما .

إن سلمان من أكابر الصحابة وأوفياهم . والحديث يفيد أنه وجل من لقاء
الله وتركته خمسة عشر درهما .

وإنها لصورة تثير الخشية والخشوع أن نرى أميراً من أمراء الفتح الإسلامى
يلقى ربه بهذا التجرد والتبتل ! .

على حين نرى القادة والأمراء يتشبعون من الدنيا بلا حدود ! .

لكن للفقه سؤالا هنا : إن سعد بن أبى وقاص الذى كان يحاور سلمان سمع
من رسول الله هذا التوجيه « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تركهم عالة
يتكففون الناس » فليس الميراث الكبير جريمة !

وسعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة - كما جاء فى السنن -
وهؤلاء العشرة كانوا من أغنياء المسلمين . بل لم يكن فيهم فقير !

وزعم الرواة أن أحدهم خلف من الذهب ما كانت تعمل فيه القفوس !! .

المشكلة ليست فى امتلاك المال الواسع بل المشكلة فى كيف تمتلكه ؟ وكيف
تنفقه ؟ وقد رأينا فى الدنيا أغنياء بنوا الجامعات حصونا للعلم والبحث ، وأغنياء

حاربوا المرض والشظف ببأس شديد ، وأغنياء قدموا لدوهم ما تطلب من ضرائب
كى تضع موازناتها إقامة للمصالح العامة .

ورأينا عثمان بن عفان بعين إعانة رائعة فى الإعداد لغزوة العسرة ، حتى جعل
الرسول يقول : اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه .

الواقع أن حديث سلمان ليس إلا تعبيراً عن حالة نفسية خاصة . ولا يعطى
حكماً شرعياً عاماً ..

وننظر النظرة نفسها إلى مارواه أحمد عن أبي عسيب قال : خرج رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - ليلاً فربى . فدعاني فخرجت إليه ! ثم مرّ بأبي بكر
رضى الله عنه فدعاه فخرج إليه . ثم مرّ بعمر رحمه الله فدعاه فخرج إليه .
فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : أطعمنا .

فجاء بعذق فوضعه . فأكل رسول الله وأصحابه . ثم دعا بماء بارد
فشرب . فقال : لتسألن عن هذا يوم القيامة ! فأخذ عمر العذق فضرب به
الأرض حتى تناثر البُسْرُ قَبْلَ رسول الله ، ثم قال : يا رسول الله : إنا لمستولون عن
هذا يوم القيامة ؟ قال نعم إلا من ثلاث :

« خرقه كفّ بها عورته (أى سترها) أو كسرة سدّ بها جوعته ، أو جُحرٍ يتدخل
فيه من الحر والقر » !! .

وفى رواية أخرى « ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال - والرواية عن
عثمان بن عفان - :

« بيت يكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجِلْفُ الخبز والماء » !! .

وفى عبارة البيهقي « كل شيء فضل عن ظل بيت ، وكسرة خبز . وثوب
يوارى عورة ابن آدم فليس لابن آدم فيه حق » ! .

قال الحسن البصرى لراوى الحديث : ما يمنعك أن تأخذ به ؟ - وكان يعجبه

الجمال - فقال الرجل للحسن : يا أبا سعيد إن الدنيا تقاعدت بي !!

ورأى أن الرجل كان يستطيع تقديم إجابة أفضل ، إجابة من كتاب الله تعالى . فبدل أن يردّ تطلّعه الفطرى إلى حب الدنيا ، يقول : « قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٨٢) ولوجعلنا هذه المرويات محور حياة عامة لشاع الخراب في أرجاء الدنيا !! .

فهل هذه المرويات باطلة ؟ ربما ظنّ البعض أنى أرى ذلك ! الواقع أن هذه المرويات تساق في مجال محدد هدف محدد . وهي جرّع من أدوية يتناولها الإنسان حتى لا يكون منهوماً بالدنيا شقياً وراء بعض الحرمان الذى يطرأ عليه !! .

كم من الناس لا يجد إلا هذه الضرورات ؟ ومع ذلك لم يمت .

وكم من الناس أيام الحروب والأزمات عاش داخل هذا النطاق ومع ذلك لم يمت .

وكم من الناس لديه أنصبة مضاعفة من هذه الأرزاق ومع ذلك لم يقدر ولم يشكر !!

إن عثمان بن عفان راوى هذه المعانى كان من الأغنياء . وقد استفاد من وعيها طلب الآخرة والاستعلاء على رذائل البخل والطمع !

إن سعة الفقه لا بد منها لفهم مرويات شتى ! .

وقد وقف الحرفيون عند هذه الآثار فوقفوا بالعالم الإسلامى كما وقف حمار الشيخ في العقبة لا يتقدم ولا يتأخر ! بل لعله تراجع إلى العصر الحجري في بعض جوانبه !! .

ويبدو أن الطبش في فهم المرويات ، وسوء تقديرها مرض محذور العقبي من

قديم فقد روى الترمذى عن الحارث الأعور قال : مررت في المسجد فإذا الناس
مخوضون في الأحاديث ! فدخلت على على رضى الله عنه فأخبرته ، فقال : أو قد
فعلوها ؟ قلت : نعم ! قال : أما إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
يقول : أما إنها ستكون فتنة ! قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ .

قال : « كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم . وخبر ما بعدكم ، وحكم
ما بينكم ! هو الفصل ليس بالهزل ! من تركه من جبار قصمه الله تعالى . ومن
ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين . وهو الذكر
الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ..

وهو الذى لا ترغ به الأهواء . ولا تلبس به الألسنة . ولا تشيع منه
العلماء . ولا يخلق على كثرة الرد . ولا تنقضى عجائبه ...

وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى
الرشد فأما به » .

من قال به صدق . ومن عمل به أجر . ومن حكم به عدل . ومن دعا إليه
هدى إلى صراط مستقيم !

خذها إليك يا أعور (٥) .

إن الحكم الدينى لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره . وإنما يضم
الحديث إلى الحديث . ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دلّ عليه القرآن
الكريم ، فإن القرآن هو الإطار الذى تعمل الأحاديث فى نطاقه لاتعدوه . ومن

(٥) يرى البعض أن الحارث ضعيف - فهو منهم بالتشيع - وبعد البحث تأكدت أنه ثقة الحارث
الأعور من الرواة الذين نازحهم لفظ لأنه منهم بالتشيع وقد أشاع الأعمش عنه هذه التهمة ويبدو
أن ذلك لصلة تشده إلى بنى أمية . وقد فرأت عنه أخيراً بحث للمشايع الفارسيين المشتغلين بعلم الجرح
والتعديل . ولهم مؤلفات حديثية كثيرة . وعرفت أن الحارث من الثقات ، وقد يكون أحسن حالا
من بعض رواة الصحاح !

ومتن الحديث الذى أثبتناه تبدو عليه أنوار النبوة .. ولا يضره طعن الطاعنين ...

زعم أن السنة تقضى على الكتاب . أو تنسخ أحكامه فهو مغرور !

ويوضح ما قلنا مارواه ابن كثير في تفسيره عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله قال : « كل ما حكم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو مما فهمه من القرآن ! قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » (٨٣)

وقال : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » (٨٤)

وهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » يعني السنة ..

وهذا صحيح ! فإن حياة محمد - صلوات الله عليه - كانت تطبيقاً عملياً لتوجيهات القرآن ! كانت سيرته في العبادة والخلق والجهاد والمعاملة قرآناً حياً يغير الأرض ويصنع حضارة أخرى . ولولا هذه السنة العملية والقولية لكان القرآن أشبه بالفلسفات النظرية الثابتة في عالم الخيال .

إن سنة محمد في النواحي الاجتماعية والمدنية والعسكرية ، وقبل ذلك كله في شرائع العبادة والاعتقاد جزء لا يتجزأ من الرسالة الخالدة . فإن الإسلام يتكون من الكتاب والسنة كما يتكون الماء من عنصريه المعروفين

ونحن هنا نذود المرويات الواهية . والأحاديث المعلولة كما نذود عن القرآن نفسه التفاسير المنحرفة والأفهام المختلفة . ليبقى الوحي الإلهي نقياً .

إن ركائماً من الأحاديث الضعيفة ملأ آفاق الثقافة الإسلامية بالغيوم . وركائماً مثله من الأحاديث التي صحت . وسطا التحريف على معناها . أو لابسها كل ذلك جعلها تنبو عن دلالات القرآن القريبة والبعيدة

وقد كنت أزجر بعض الناس عن رواية الحديث الصحيح حتى يكشفوا
الوهم عن معناه ! إذا كان هذا المعنى موهما . مثل حديث « لن يدخل أحد
الجنة بعمله ... الخ »

إن طوائف من البطالين والفاشلين وقفت عند ظاهرة المرفوض . وحسبوا أن
الجنة تدخل دون عمل ، وتناسوا عامدين عشرات الآيات التي تجعل دخول
الجنة نتيجة عمل واجب .

فكنت أبين لهم أن الحديث بنى الاغترار والاستكبار بالعمل أى بنى أن
الجنة ثمن العمل المقدم ، ولكنه لا يبنى أبدا أن العمل سببها المحتوم لقوله تعالى :
« ونودوا : أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » (٨٥)

وكثير من القصاص والوعاظ بنقصهم الوعي الذكى بالقرآن والاقتراب
الحاشع من مغازيه وبيئاته . ومع ذلك فلدتهم ثروة طائلة من أحاديث الآحاد
التي تحتاج إلى ترتيب وحسن إدراك .

وقد غاظنى أن أحدهم كان يطير فى الجامع بحديث « أبى وأبوك فى النار »
وكأنما يسوق البشرى إلى المسلمين ، وهو يشرح لهم كيف أن أبوى رسولهم فى
النار !!!

قلت : قبحك الله من داع أعمى البصيرة ! مالديك شىء من فقه
الإسلام ، ولا من أدب الدعوة ..

ومثلك لايزيد الأمة إلا خبالا باسم السنة ، والسنة منك براء ... !

قال الشيخ يوسف القرضاوى فى شرح حديث « أبى وأبوك فى النار » : إن
الأب قد يطلق لغة واصطلاحا على العم ، فلعل المقصود بالأب هنا عمه أبو
طالب .

ذلك أن أبا طالب عُرِضَتْ عليه كلمة التوحيد قبل أن يموت فأبى أن ينطق بها .

... ونحن نقبل هذا التأويل حتى لا يقع تعارض بين السنة والكتاب .. !
وقد سمعت بأذني من يقول : الحديث صحيح وهو يخص عموم الآية .
فأهل الفطرة ناجون جميعا - عدا عبد الله بن عبد المطلب .. !! قلت له : ماذا فعل حتى يستحق وحده النار ؟ كان عبد الله شابا شريفا عفيفا حكى عنه التاريخ ما يزينه ! ولم نبحث عنه ما يشبهه ! والآية خير لا يتحمل استثناء . فما حماسكم في تعذيب عبد الله ؟ وما جريكم هنا وهناك بهذه الشائعة ؟ وماذا وراء تأكيدكم أن أبى الرسول في النار .. ! إننى أشم رائحة النبل منه فى هذا الحماس الأعمى .. !! .

أَحَادِيثُ الْفِتَنِ

نظرة سريعة - الدجال زعيم اليهود - مصرعه ، وبده طور
جديد للإسلام - مناقشة حديث الساق - مناقشة ما يقطع
الصلاة

قرأت أحاديث كثيرة في الفتن وعلامات الساعة ، وخرجت من قراءتي وأنا
أسرح البصر خلال غيوب لا أدري أعماقها !.

إنني ومائر المسلمين تؤمن بقيام الساعة ، والإيمان باليوم الآخر حق ، ولا يتردد
فيه إلا كافر ، وليس يعنيني كثيرا أن أعلم حقائق ما يقع من حساب وثواب أو
عقاب ، فإن تفاصيل ذلك فوق العقل ...

ولكنني أشعر بأن العالم في أواخر عمره من هذه الدنيا سيتضاعف بلاؤه ،
وسيحصد الشر مما غرس على امتداد تاريخه من آثام وانحرافات !.

لطالما نسي ربّه . وأهمل وحيه . وأطاع هواه ! فلا عجب إذا قال ربنا
تبارك اسمه : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا
شديدا . كان ذلك في الكتاب مسطورا »^(٨٦) « وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا
وجعلنا لمهلكهم موعدا »^(٨٧) ..

ولا يستغرب أحد أن يكثر الدجالون الذين يغترون بالجاهير ، ويسخرون
مالديهم من فضل معرفة في إتاهة الناس عن الحق ، وتدوينهم هنا وهناك
وتشير الأحاديث إلى أن عشرات الدجالين سوف يظهرون ، وأن هناك دجالا
مستطير الشر سيفوق إخوانه في فنون الدجل وأن عشرات الألوف من اليهود
يتبعون هذا الدجال الأخير...!!

(٨٦) الإسراء : ٥٨

(٨٧) الكهف : ٥٩

وقبل أن أذكر نماذج من الأحاديث الواردة أقرر حقيقة واحدة هي أننا نحن المسلمين نؤمن بآله لا حدود لمجده ولا منتهى لكمالاته ومحامده ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

خلقنا ورزقنا وكسانا وآوانا وعلمنا وربانا وأفاض علينا من آلائه مالا يحصى .
وأنا سنظل نذكره ونعبده ما بقينا على ظهر الأرض ، مستعدين بذلك للقاءه بعد الموت لنستأنف حياة أخرى عنده عامرة بالثناء عليه والتسبيح بحمده ! .

ذلكم هو الصراط المستقيم الذي نهزم به الفتانين ونردّ به الشياطين ، ونراغم به كل دجال يحاول إضلالنا أو ثنيّا عن هدفنا العظيم .. !

بعد هذه المقدمة أذكر بعض ما قرأت عن الدجال بإيجاز ، ففى حديث أنه مكبل بالقيود فى إحدى الجزر ببحر العرب أو بالمحيط الهندي . وقد لقبه تميم الدارى وهو رجل كان نصرانيا وأسلم ... ثم التقى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدثه بأنه لقي الدجال فى وثاقه الذى يحبسه عن الانسياح فى الأرض . وأنه موشك على الانطلاق ليقوم بفنتته آخر الزمان .

وفى حديث آخر وصف لأسرة الدجال . وفيه : إن أبويه يمكنان ثلاثين عاما لا يولد لها ولد وأخيرا يولد لها غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة !

قال أبو بكر رضى الله عنه : فسمعنا بمولود فى المدينة بين اليهود . فيه شيء من هذه الصفات ، فذهبت أنا والزبير بن العوام حتى دخلنا على أبويه ، فإذا هما كما نعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! ونظرنا إلى ابنهما فإذا هو منجلد فى الشمس فى قطيفة له وله همهمة ... الخ .

قال الشارح : لعل الدجال - وقد ولد من يهود المدينة - قد انتقل بعد ذلك إلى الجزيرة التى رآه فيها تميم الدارى !! .

وللنّاس بن سميان حديث طويل فى الدجال . ذكر فيه طرفا من القوة التى

زُود بها أو الفتنة التي يثيرها بين الناس قال : « ... يأتي على القوم فيدعوهم - إلى عبادته - فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبث فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرَى وأسبغه ضروعا وأمدّه خواصر ... !!
أما الذين يكفرون به فينصرف عنهم فيصبحون مُملحين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ... !! الخ .

ثم ينزل عيسى بن مريم فلا يزال يطارد الدجال حتى يدركه باللدّ فيقتله . ويربع الناس من شروره ...

والأحاديث التي اقتبسنا نقتاً منها هي أحاديث آحاد ، وبعضها في الصحاح ..
والروايات عنه كثيرة . وفي إحداها : أنه مكتوب بين عيني الدجال (ك ف ر)
أي كافر يقرؤه كل مسلم !! .

وفي رواية عن أم شريك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ليفرن الناس من الدجال في الجبال ! قالت أم شريك : يا رسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل ... » .

ويظهر لي أن الدجال من زعماء اليهود ، وقد يكون من كبار علمائهم الكونيين ، وهو يمثل عَوَجَ الضمير اليهودي وانقطاعه عن الله . بل عداوته له ..

وقصته قبل الساعة تمثل خاتمة الصراع السبي بين أتباع الأديان الثلاثة .
فاليهود بقيادة مسيحهم يحاولون الظهور والسيطرة والنصارى مستمسكون بأقانيمهم وتعاليمهم وصلبانهم وسيرتهم الاجتماعية المعروفة . وهم يظاهرون اليهود على العرب .

والمسلمون فرق شتى فيهم الصالح المستميت في المقاومة . وفيهم التائه الهائم على وجهه .

ومع اشتداد الصراع الديني يقدم الزحف الأحمر من الشرق جيشا بعد

جيش : وفوجا بعد فوج . فلا يصدّه شيء ..

في غمار هذه الفوضى الضاربة بنزل عيسى بن مريم ليؤيد عقيدة التوحيد .
ويصدق النبوة الخاتمة ويقتل إله اليهود . ويواجه بالمسلمين الزحف الأحمر .
زحف يأجوج ومأجوج حتى يقضى بقدرة الله عليه

ذاك ما فهمته من حشد هائل من الأحاديث التي تباينت فيها عبارات
الرواة : وتخللتها بعض الأوهام .

وفي القرآن الكريم إشارات موجزة لبعض ما فهمنا ..

ونترك الأحداث العظام التي تقع قبيل الساعة إلى بعض مشاهد القيامة .
ومواقف الحساب أمام رب العزة : لا ريب أن يوم الحساب يوم رهيب . يلقي فيه
العصاة والفجار ما لم يخطر لهم ببال «يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى
السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى
السجود وهم سالمون» (٨٨) !

والآيات تعني أن الذين ألفوا العصيان في الدنيا والتمرد على الله يخشرون
بعاداتهم التي ألفوها من قبل . فلا يقام لهم عوج . ولا ينظم لهم خذل . وتكون
حالتهم على تلك المشاهد وهم يقادون إلى العذاب ويوقع بهم القصاص

لقد أبوا في دنياهم إلا أن يكونوا أشراراً فليذوقوا ما ارتضوا لأنفسهم !

وكلمة «يوم يكشف عن ساق» تعبير عربي أصيل . قال ابن عباس : تقول
العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم فظيع يحتاج فيه إلى الجِدِّ ومقاسات الشدة :
شمرَّ عن ساقك !

ولما سئل عن هذه الآية قال : إذا خفي عليكم شيء من القرآن . فابتعدوا في
الشعر فإنه ديوان العرب . أما سمعتم القائل :

سَنَ لَنَا قَوْمَكَ ضَرْبَ الْأَعْنَاقِ وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقٍ !
وَأُنْشِدُ أَبُو عُبَيْدَةَ :

فَإِنْ شَمَرْتَ لَكَ عَنْ سَاقِهَا فَدَثَّهَا رِبْعٌ ، وَلَا تَسْأَمْ !
وَقَالَ جَرِيرُ :

أَلَا رُبَّ سَاهِيِ الطَّرَفِ مِنْ آلِ مَازِنٍ إِذَا شَمَرْتَ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرًا
عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ فَهَمَّ ابْنُ عَبَّاسٍ - وَهُوَ تَرْجِمَانُ الْقُرْآنِ - الْآيَاتِ ، وَتَبِعَهُ
الْعُلَمَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَمَانَعَرُوا إِلَّا هَذَا التَّفْسِيرَ لِلْوَحْيِ الْكَرِيمِ .

حَتَّى جَاءَ بَعْضُ الْمَوْلَعِينَ بِمَشْكَلِ الْحَدِيثِ وَغَرِيبِ الرِّوَايَاتِ ، فَذَكَرُوا كَلَامًا
آخَرَ لَا يَدُّ مِنْ كَشْفِ حَقِيقَتِهِ لِحُطُورَةِ مُضَامِينِهِ وَشَذُوزِهَا عَمَّا يَعْرِفُ عُلَمَاءُ
الْمُسْلِمِينَ .. قَالُوا : إِنْ السَّاقُ هِيَ الْعَلَامَةُ الَّتِي يَعْرِفُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ رَبَّهُمْ فِي امْتِحَانِ
عَصِيبٍ يَجْرَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ !! .

وَالْقِصَّةُ كَمَا ذَكَرْنَاهَا تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ بَعْدَ إِقْلَاعِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْعَذَابِ يَبْقَى الْمُسْلِمُونَ
وَحْدَهُمْ : « حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي
أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا ! فَقَالَ : مَاذَا تَنْتَظِرُونَ ؟ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ
تَعْبُدُ ! قَالُوا : يَا رَبَّنَا فَارْقَنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرُ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ ! وَلَمْ نَصَاحِبِهِمْ !
فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا حَتَّى
إِنْ بَعْضُهُمْ لِبَكَادٍ أَنْ يَنْقَلِبَ ! .

فَيَقُولُ : هَلْ يَبْنِيكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ ؟ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ! فَيُكْشَفُ عَنْ
سَاقٍ . فَلَا يَبْقَى مِنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذُنُ اللَّهِ لَهُ بِالسُّجُودِ .
وَلَا يَبْقَى مِنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءَ وَرِيَاءٍ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً . كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ
يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ ! ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا .. !! .

هذا سياق غامض مضطرب مبهم !! وجمهور العلماء يرفضه . وقد حاول القاضي عياض القول بأن الذى جاء المؤمنين فى صورة أنكروها أول الأمر هو أحد الملائكة . وكان ذلك اختبارا من الله لهم . وهو آخر اختبار يلقاه المؤمنون !! .

ومحاولة القاضي عياض لا تقدم ولا تؤخر . فليست الآخرة دار اختبار ، إن الاختبار تم فى الدنيا ، كما جاء فى البخارى : « اليوم عمل ولا جزاء وغدا جزاء ولا عمل » .

ثم لماذا يقوم أحد الملائكة بهذه التمثيلية المزعجة ؟ وبإذن من ؟ وما جدواها ؟ وإذا تركنا كلام عياض لتأمل فى الوقائع نفسها وجدنا ما يستحيل عقلا ونقلا أن يقبل ! فإن الله لا يحىء فى صورة تنقص عظمته وجلاله ، ثم يبدو فى صورة حقيقة بعد ذلك ، مهما قلنا : إن المقصود بالصورة هو الصفة !! . الحديث كله معلول . وإلصاقه بالآية خطأ ، وبعض المرضى بالتجسيم هو الذى يشيع هذه المرويات . وإن المسلم الحق ليستحى أن ينسب إلى رسوله هذه الأخبار .

سبب الأمة وخلفها متفقون على تنزيه الله سبحانه . وعلى أنه أهل الثناء والحمد والمجد .

والسلف واخلف يستذكرون ما جاء فى كتب اليهود والنصارى مفيدا لتجسيد أو ناسبا إلى الدات الأقدس ما لا يليق بجلاله وجماله . تباركت أسمى ..

وجمهور حكائنا يلومون « المعتزلة » على تأثرهم بلفسفة الإغريق . وتصوّرهم للإله الواحد تصورا نظريا يكاد يخضعه - من العلو فى التجريد - وعمما ..

ولست أحب أن أحى الجدل القديم . ولا أن أخوض فيه . ولا أن أعلق عليه . فقد كرهته بفطرتى ! واعتمدت على القرآن الكريم وأنا أبى العقيدة فى نفسى وفى المجتمع الذى أعيش فيه .

ولعلنى استفدت من أستاذى حسن البنا فى هذا الاتجاه . كما استفدت من الشيخ محمد عبده فى اعتذاره عن الأقدمين واعتباره العراك الناشب بينهم لفظيا لا حقيقيا .

وربما قلت كلمات فى المساجلات الأولى تحتاج إلى ضبط . أو تفهم فى نطاق ملابسات خاصة وإلا فهى كلمات مرفوضة ..

من ذلك ما نقل عن بعض علماء السلف : أنهم لا ينفون ولا يشبّون جسمية لله تعالى ! إن ظاهر هذا الكلام مردود . وهو مناف للآية الكريمة ، ليس كمثله شئ . « إننا ننفى الجسمية بداهة . وفى عصرنا هذا استيقنا من أن الجسم مادة . وللهذة خصائصها التى تدرس فى علم الطبيعة . ومن المستحيل أن يتصف الله سبحانه بشئ . من تلك الخصائص ..

ونحسب أن المبانغة فى التمسك بالنقل هى من وراء تلك العبارات الحذرة ، وقد لجأ الخلف إلى تأويل كل ما يوهم المادية . وآثر السلف عدم الخوض فى هذه المرويات مفوضين المعنى إلى الله . ومؤمنين بدالاتها مع إثبات التنزيه المطلق لرب العالمين .

والخطب سهل كما قلت . بيد أننا حين نفتح باب التفويض نأى أن تدخل فيه آثار معلولة . فإن العقل المسلم لا يخدع بهذا الأسلوب .

واضطراب القول يقع فى الأمور الغيبية كما يقع فى الأمور التكليفية العملية ولا يضير الإسلام أن تتشابه الأمور على أحد الرواة ، فالكتاب معصوم والسنة فى جملتها سليمة ، وليس العجب من غلط يقع فيه زائروا وإنما العجب من قبول هذا الخطأ ثم الحماس فى الدفاع عنه . ولم يكن ذلك شأن الأئمة ولا منهج السلف والخلف ...

روى مسلم بسنده سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إذا مرّ بالنظفة ثتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها . وخلق سمعها وبصرها

وجلدتها ولحمها وعظامها . ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك مايشاء
فيكتب الملك ! .

ثم يقول : يارب أجله ؟ فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك ! .

ثم يقول الملك : يارب رزقه ؟ فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك !

ثم يخرج الملك الصحيفة . فلا يزيد على أمر ولا ينقص »

أما البخارى فيروى عن ابن مسعود . حدثنا الصادق المصدوق أن خلق
أحدكم يجمع في بطن أمه نقطة أربعين يوما . ثم يكون علقه مثل ذلك . ثم
يكون مضغة مثل ذلك .

ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقى أو سعيد . ثم ينفخ
فيه الروح... الخ .

وبين الروایتين تفاوت واضح . فالأخيرة تفيد أن الكتابة المذكورة بعد أربعة
شهور والأولى تفيد أن الكتابة بعد اثنين وأربعين يوما .

وندع أمر الترجيع والرد والقبول للمشغلين بهذا الأمر . فإن أى مسلم لو
ذهب إلى الله بإيمان واضح وعمل صالح فلن يضره الجهل بأحد الحديثين أو بهما
معا .

إن قواعد الإيمان وأركان الصلاح مشروحة في الكتاب والسنة وليس من
بينها الإحاطة ببدء الخلق . والأزمة التي يستغرقها . وحسبنا ما أثبتته القرآن
الكریم في هذا المجال . ولتتجه العزائم بعد ذلك إلى الجهاد وما يهب رفيع
الدرجات !

إن القاصرين من أهل الحديث يقعون على الأثر لا يعرفون حقيقة ولا
أبعاده . ثم يشغبون به على الدين كله دون وعى ، خذ مثلا مايقطع الصلاة .
فقد تشبثوا بحديث يقول إن الصلاة تقطعها المرأة . والحمار . والكلب الأسود !

وجمهرة الفقهاء رفضت هذا الحديث ، واستدلّت بأحاديث أخرى تفيد أن الصلاة لا يقطعها شيء ، وأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يصلي وزوجته عائشة مضطجعة أمامه ، كما أن ابن عباس مر بحمار كان يركبه أمام جماعة تصلي ، فلم تفسد لها صلاة ، والكلاب أبيضها وأسودها سواء ! .

لنشيخ أحمد شاكر - وهو من أكابر علماء السلف - رأى يستحق التسجيل وتوضح به هذه القضية . ذكره في تعليقاته على « المحلى » لابن حزم في سياق رواية جاء فيها « ... سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث عن عياش ابن أبي ربيعة قال : بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي يوما بأصحابه إذ مر بين أيدينا حمار ! فقال عياش : سبحان الله ! فلما انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صلاته قال : أيكم سبّح ؟ قال عياش : أنا يا رسول الله ! سمعت أن الحمار يقطع الصلاة فقال رسول الله لا يقطع الصلاة شيء ! .

وقد قلت في شرحي على التحقيق لابن الجوزي بعد رواية هذا الحديث : هذا إسناد صحيح .

وشرح الشيخ أشياء تحتاج إلى بيان ثم قال وهو صريح في الدلالة على أن الأحاديث التي فيها الحكم بقطع الصلاة - بالمرأة والحمار والكلب - قد نسخت ! .

فقد سمع عياش أن الحمار يقطع الصلاة . وعياش من السابقين الذين هاجروا المهجرين . ثم حبس بمكة . وكان رسول الله يدعو له في القنوت كما ثبت في الصحيحين . فعمد الحكم الأول ثم عاب عنه نسخه ، فأعلمه رسول الله بعد أن الصلاة لا يقطعها شيء . قال الشيخ شاكر رحمه الله : وهذا تحقيق دقيق واستدلال طريف لم أر من سبقني إليه ! .

ولست ممن يبنون العلالي على الخلافات في فروع الفقه وإنما تعينني سمعة الإسلام عندما يسافر امرؤ متعصب إلى أوروبا وأمريكا ثم يذكر للناس أن المرأة والكلب والحمار سواء في إفساد الصلاة عند مرورها ... ! .

وحير له أن يتبع جمهور الفقهاء أو يلوذ بالصمت ، ويمنع الفتنة ، ولا يشير
الدخان حول سمعة الإسلام .

عندما كتبنا في أحد مؤلفاتنا أنه لاسنة بلا فقه كنا نريد أن نمنع أناسا يشتركون
أحد كتب الحديث ، ثم يطالعون أثرنا لا يدرون ما قبله ولا ما بعده ، ثم يحدثون
فوضى قد تراق فيها الدماء ...

كان نقض البيعة في تاريخنا القديم يعني الخروج المسلح على دولة الخلافة ،
فإذا هو يتحول في أذهان بعض الشباب إلى مفارقة إحدى الجماعات العاملة في
الميدان الإسلامي ورفض الولاء لشاب تعين أميرا على هذه الجماعة ! .

وقد شاعت أحكام فقهية كثيرة مصدرها هذا الاطلاع الطائش ...

وَسَائِلُ وَغَايَاتُ

المتغيّر والثابت في ..

١- ميدان الجهاد

٢- ميدان الشورى

ذكرنا في بعض ما كتبنا: الحديث الشريف وهو: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»
وقلنا: إن شئون الدنيا تتبع اجتهاد البشر مؤمنهم وكافرهم، وإن الأنبياء لم يبعثوا
ليعلموا الناس الحرف وفنون الصناعات وأنواع الزراعات كما لم يبعثوا مهندسي معمار
أو طرق وجسور، وكذلك ما بعثوا، أطباء بطون وعيون، إن صميم رسالتهم هو
شرح العقائد والعبادات والأخلاق وتزكية النفس والمجتمع. وبث التعاليم التي
تحكم صلات الناس بربهم وصلة بعضهم ببعض الآخر، وتُعدهم للعودة إلى الله
أتقياء بررة...

وهناك ميادين أخرى تشبه ميادين الدنيا في حرية الحركة والاختراع
والمنافسة! هي ميادين الوسائل التي لا بد منها لتحقيق غايات دينية مقررة. ترك
الشارع للمؤمنين كيفية بلوغها. ولم يذكر فيها أحكاما ملزمة!

إن الصلاة واجبة. ولا بد لأدائها من أغسال فصلها الشارع. فالوسائل هنا
لا بد من القيام بها دون تزيد ولا انتقاص..

والجهاد واجب. ولكن أدوات الجهاد وأساليبه ليس لها قالب معين تُصب
فيه! فإذا تغيرت الوسائل من السيف والرمح إلى المدافع والصواريخ تغيرت معها
الأحكام القديمة وتحول رباط الخيل إلى إنشاء المطارات والحصون الحديثة.
وإلى إنشاء معاهد العلوم الكيماوية والنظرية والفلكية الخ

قديم كان الرجل يشتري سلاحه من ماله الخاص. ويتعهد صيانته ويتدرب
عليه! فإذا سمع النداء خرج راجلا. أو خرج مع فرسه الذي ارتبطه في سبيل

الله . فإذا استشهد خلف أيامى ويتامى ! وإذا جرح تحمّل مداواة نفسه !
ونظام الغنائم - فى مثل هذه الأحوال - لابدّ منه ، بل هو العدالة
المفروضة ..

وقد وردت نصوص كثيرة تشرحه وتحدد أنصبتة ! .

أما اليوم فقد تغيرت الظروف تغيرا جذريا ، فالدول تجنّد الأفراد تجنيداَ
عاما . يأتيا الشاب فتطعمه وتكسوه وتضع بين يديه سلاحه الذى اشترته له .
وتعدّه للمعركة أتمّ إعداد ، فإذا جرح داوته ، وإذا قتل كرّمته وتولّت الإنفاق
على أهله وولده ...

وهو طول حياته يأخذ مرتبا حسنا . قد يتنامى مع اختلاف الرتب التى
يتقلب فيها .. وهذا النظام أمسى ضرورة لا محيص عنها ، ولا يمكن ترك الدفاع
لرغبات التطوع أو لظروف الأفراد ! إن ذلك يجعل الأمم تداس فى زحام
الأحياء وبطش الأقوياء ! .

ومع الأنظمة الجديدة يتغير نظام الغنائم تغيرا تاما . ! وتنشئ الدولة تعاليم
جديدة لمعاقبة مجرمى الحرب : ومعاملة المحسن والمسيء .

وعلى ضوء ما ذكرنا نفهم ما رواه البخارى « قسم رسول الله - الغنائم - يوم
خيبر للفرس سهمين^(٨٩) وللراجل سهما .. »

ومع أن الأحناف رفضوا الحديث ، وقدموا عليه حديثا آخر وهو أن النبىّ
عليه الصلاة والسلام « أعطى الفارس سهمين والراجل سهما^(٩٠) » فنحن نرى
القضية كلها منتهية . لأن دور الحياالة والرجالة انقضى وأضحى كسب الحرب
منوطا بأجهزة أهم وأدق ، تعمل فيها المدرعات والطائرات ...

(٨٩) (٩٠) أغلب الأئمة كان يمح الفارس ثلاثة أسهم . وحداه ، واثنين لفرسه ! أما أبو حنيفة
فاستكر أن يكون للفرس - وهو حيوان - ضعف سهم الراجل ! .

وكذلك ينتهى العمل بمبدأ « من قتل قتيلا فله سلبه » .

ويجوز للدولة أن تمنح جوائز خاصة لمن أبلوا بلاء حسنا ..

ونعرض هنا لقوله تعالى : « واعلموا أنها غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » (٩١) .

ونسارع إلى القول بأن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن نصوصه باقية إلى آخر الدهر ، لا ينسخها شيء !! .

ونتساءل ما معنى هذه الآية ؟ هل ثمانون في المائة من الغنائم يقسم على الجيش ، ويوزع الخمس الباقي على مصارفه المذكورة في الآية ؟ وكذلك يرى أغلب الأئمة .. !

ونحن نرجح رأى الإمام مالك رضى الله عنه . الذى يرى التخمس أحد الصور التى تقوم بها الدولة . ولكنها غير مزمنة به إذا رأت المصلحة فى غيره . فالأمر إليها تنظر فى الغنائم نظرة أوسع .

ويستشهد مالك على مذهبه بأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وزع غنائم حنين فأعطى الطلقاء عطاء ما توقعه أحد . كادت قلوب الأنصار تحزن منه ! حتى شرح لهم الحكمة مما صنع .. !

ونضم إلى هذا الدليل وغيره - مما استدل به مالك - ما صنعه عمر بن الخطاب فى الأراضى المفتوحة . فقد رفض تقسيمها أخماسا على الفاتحين . واكتفى بإعطائهم مرتبات من الضرائب المفروضة عليها ..

وجمهور العلماء يدخل القضية فى باب المصالح المرسلة . ولا ريب أن مسلك عمر كان أرشد وأجدى على الإسلام وأمنته

إن الوضوء وسيلة للصلاة لا مجال للرأى فيها لأن الشارع ضبطها بحس محكم . أما أدوات الجهاد ووسائله فلم يضبطها الشارع أو يضع لها إحصاء . ومن ثم كان العقل مرجعها الأول ..

ولاحرج علينا أن ننقل أحدث الأسلحة من شرق أو غرب . ولاحرج أن يدربنا عليها الإخصائيون المهرة من أى لون وملة ، ويبقى أن نستخدمها وفق قواعد الشرف التى سنّها الإسلام ! .

والشورى مبدأ إسلامي عظيم ! لكن وسائل تحقيق الشورى وضبط أجهزتها لم يتقرر لدينا ، ويظهر أن هذا مقصود لاختلاف البيئات والمستويات الحضارية ، بل إننا لاحظنا أن أمة واحدة رفيعة الحضارة غيرت وسائل الشورى فيها عدة مرات حسب تجاربها ومنافعها .

وما حدث فى فرنسا خلال أقل من نصف قرن نموذج لذلك التغيير .. والشورى فى دولة الخلافة برزت فى صور شتى . وليس المهم أى طراز نستمسك به ؟ بل المهم أن نوفر الضمانات والأساليب التى تجعل الشورى حقيقة مرعية . فيختفى الفرد المستبد ، وتموت الوثنيات السياسية ، ويترجح الرأى الصحيح دون عوائق . ويتقدم الرجل الكفء دون أحقاد ...

هل يمكن ذلك فى غيبة العقائد والأخلاق ؟ هذا مستحيل ! لقد نقل الشرق الإسلامى صورة الديمقراطية الغربية فى مرحلة هابطة من تاريخه ، صرعت فيها موارد جاهلية ، وخدعته تقاليد استعمارية سفية ، فإذا حدث ؟ ثم تزوير الانتخابات على نحو مذهل ، وشقت الوثنيات السياسية طريقها وسط هالة من تأييد شعبي مكذوب ! .

ولو أن بعثة من النقاد والرواد زارت مزبلة التاريخ لوجدت فى رغامه عددا من زعماء العرب والمسلمين . قتلوا الألوف المؤلفة لتكون لهم أجماد ولتهدف

بأسمائهم بلاد ! وهم مع هذه الفرعة زعماء الشعب المحبسون ...
يؤسفنا أن الشورى أينعت ثمارها في أقطار واسعة وراء دار الإسلام .
ونحن نطلب الشورى ، ونريد اعتبار الوسائل المؤدية لها فروضا عينية على
أساس من القاعدة الفقهية « ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب » .
ويتقاضانا ذلك وضع تفاسير صحيحة لأحاديث الأمر والنهي وتغيير المنكر
ومقاومة مرتكبي الكفر البواح ، وتوضيح الفروق الدقيقة بين المعارضة المشروعة
والثورة التي تنقض ببيان المجتمع ، أو بين النقد الواجب ، والخروج المسلح ...
من خصائص « الديمقراطية » الحديثة أنها اعتبرت المعارضة جزءا من النظام
العام للدولة ! وأن للمعارضة زعيما يعترف به ويتفاهم معه دون حرج ! ذلك أن
مالك السلطة بشر له من يؤيده وله من ينقده ، وليس أحدهما أحق بالاحترام
من الآخر .

والواقع أن هذه النظرة تقترب كثيرا من تعاليم الخلافة الراشدة ، فإن على بن
أبي طالب لم يستبج من عارضوه ، أو يحشد الجموع لضربهم ، بل قال لهم :
ابقوا على رأيكم ما شئتم على شرط ألا تحدثوا فوضى ولا تسفكوا دما ، أى أن
الرجل العظيم يريد معارضة بناء لاهدامة ، ولا يرى أن الاعتراض على شخصه
منكر ! .

وعبارة على رضى الله عنه للخوارج هي « كونوا حيث شئتم ، وبيننا وبينكم
ألا تسفكوا دما حراما . ولا تقطعوا سبيلا ، ولا تظلموا أحدا ! فإن فعلتم نفذت
إليكم بالحرب ! » .

قال عبد الله بن شداد : فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدم
الحرام .

قال الصنعاني : فدل ذلك على أن مجرد الخلاف على الإمام لا يوجب قتال

من مخالفه . وبهذا التفكير الصائب فسر الحديث الشريف « من خرج عن الطاعة . وفارق الجماعة . ومات فيته ميتة جاهلية » أى كأهل الجاهلية لا إمام له .

ذلك كله مالم يجنح إلى الثورة المسلحة . فإن جنح إليها فله حكم آخر . وعن عبد الله بن عمر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من حمل علينا السلاح فليس منا » ..

وقد تكون للديمقراطية الحديثة مثالب فى أنها توفر الحرية للطاعة والفسق . والإيمان والكفر ! .

ولكن هذه المثالب تختفى عندما يوضع فى صلب الدستور أن الإسلام دين الدولة وأن الشريعة المصدر الأوحد للقوانين ، وأن ماخالفها يسقط من تلقاء نفسه ! .

ولولا غلو الغلاة من أصحاب العقائد . وعدوانهم على مخالفهم فى الرأى ولو كان هامشيا ما اتسعت دائرة الحرية إلى حد قبول المتناقضات وإقرار الرذائل والشهوات ..

يبد أن هناك سؤالا لانوار فى الإجابة عليه : هل محاربة الإسلام ذاته تحت عنوان محاربة التطرف لون من الديمقراطية ؟ هناك سلطات فى العالم العربى والإسلامى تكره كل الكره ما أنزل الله ، وتثور ثائرتها إذا رأت فتاة مستورة الرأس والأذرع . وترفض بغضب كل صيحة لإلغاء الأحكام التى جلبها الاستعمار العالمى عندما طوانا تحت رايته ! فهل هذه ديمقراطية ؟ أم أنها امتداد للإذلال القديم وللغارة الصليبية على العالم الإسلامى ؟

إن هناك من يريد قتل الشعب باسم الشعب ، وواد الحرية باسم الحرية . وفى مزيلة التاريخ - كما قلنا آنفا - زعماء من هذا القبيل المحقور . فعلوا بالمسلمين الأفاعيل !! ..

وهناك من رجال الدين من يمشى فى مواكبهم راغبا فى دنياه ، زاهدا فى
آخره ، مستوجبا لعنة الله ...!

إن للغايات الجليلة وسائل نبيلة تعين على إدراكها ، ومن غير هذه الوسائل
يصعب أن تقوم شورى صحيحة كما يصعب أن يقوم جهاد نزيه ناجح ! .
ويستطيع أولو الألباب أن يحددوا الغايات الثابتة والوسائل المتغيرة ،
والفقهاء فى الكتاب والسنة أقدر الناس على ذلك . .

على أن هناك استدراكا حول ماذكرنا من شئون الدنيا : وتجدد الوسائل .
صحيح أن الناس أعلم بشئون دنياهم . وبما يقرب لهم ما يصبون إليه من
أهداف عظام ..

لكن المهارة فى الدنيا خطيرة الآثار . وكذلك الخبرة الإدارية الواسعة !
ويوم يكون الملاحدة مكرة مهرة خبراء أذكاء ، ويكون المؤمنون سذجاً أغراراً فإن
مستقبل الإيمان على ظهر الأرض ضائع يقينا ..

إن بعض الأتقياء يستكثرون حفظ النصوص ومطالعة الآثار على حين تراه فى
شئون الحياة غفل الذهن خالى الصحيفة ، فإذا يكسب الدين من هذا
الشخص ؟ .

لقد نجحت خرافات وسبقت أوهام لأن وراءها من أحسن خدمتها بقدراته
وخبراته ! على حين جمدت رسالات الله . وساءت بها الظنون لأن أتباعها
أنصاف أذكاء وأنصاف عاملين .. ولانطيل فى هذه القضية فطالما خضنا فيها .

وإنما ألفت النظر فى عجالة سريعة إلى فشل المتدينين فى عرض آرائهم الدينية
وتزيينها فى القلوب . بل إن الدعاية الدينية تكاد تكون مهزومة فى ميادين
الإعلام ..

والأمر لا يحتاج إلى استيراد مواد من الخارج ! إنه يحتاج إلى استحياء الملكات

الخامدة في نفوس المؤمنين . وهي ملكات خمدت من طول تزويق الظاهر .
ونسيان الباطن ..

إنني ألقى ناسا يزعمون أنفسهم أقطابا ، وهم فقراء إلى المبادئ الأولى في تربية
النفس . وإخلاص القلب . ونشدان وجه الله - وما أبرئ نفسي بل أسأل ربي
المغفرة - إننا عندما نصدق نخترع ما لا يحطريبال لخدمة الحق ، ونقتحم آفاقا ما
عرفها الأولون . ونكسب معارك كثرت فيها هزائمننا من قبل

القدرَ والجَنبَر

العلم الإلهي الشامل - معنى سبق الكتاب - ردّ ما يفيد الجبر
مثل إن الله خلق للنار ناسا وللجنة ناسا - عرض آيات
الاختبار الحر والجزاء والعدل - معنى الآية « لو شاء لهذاكم
أجمعين » - مظاهر الإرادة العليا - ندم المذنبين يوم القيامة
ودلالاته - نظرة في ختام سورة المؤمنين - نظرة عامة إلى
أحاديث القدر

العلم الإلهي مسطور في كتاب ضابط شامل محيط . « ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ؟ إن ذلك في كتاب . إن ذلك على الله يسير » (٩٢)

وهذا الكتاب يضم عالمي الغيب والشهادة . ويتناول الأصغر والأكبر من مثاقيل الذرّ ، فالله لا يخفى عليه شيء « عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (٩٣)

وفي تفصيل آخر لمحتويات هذا الكتاب يقول جل شأنه : « ... ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » (٩٤)

وبديهي أن أعمارنا وأرزاقنا وتفاصيل حياتنا ومواعيد وفاتنا بعض محتويات هذا الكتاب . فليس من المعقول أن يجهل ربنا شئون ما خلق ومن خلق . أو يجهل الخطة التي وضعها لسير الكون وسكانه . والأرض وقطانها . أو يجهل مراحل تنفيذها بما هيأ من أدوات « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق ؟ وهو اللطيف الخبير » (٩٥)

والناس كلهم كافرهم ومؤمنهم . طفلهم وشيخهم ينالون ما سطر لهم في

(٩٢) الحج : ٧٠

(٩٣) سبأ : ٣

(٩٤) الأنعام : ٥٩

(٩٥) الملك : ١٣ - ١٤

هذا الكتاب . بل المخلوقات من جهاد وحيوان تتحرك في دائرة هذا العلم السابق الصادق . قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (٩٦) .

وقد أمر الله المؤمنين أن يستريحوا لهذا العلم القديم ، ويستكينوا لحقيقته « قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٩٧) .

إن هذا العلم الأعلى يتناول ملكوتا نشغل نحن البشر حيزا صغيرا منه ، وما ندرى شيئا عن آماده ! ما لنا وللمريخ أو للشعري . أو لغيرهما من العوالم ؟ كما يتناول في حياتنا على ظهر الأرض نوعين من الأعمال ، نوعا لا ندرى كيف بدأ . ولا أين يتجه . ولا متى يتوقف ؟ وهذا النوع من الأعمال وإن مس حياتنا من قريب أو بعيد فلسنا مسئولين عنه ولا مؤاخذين بخيره أو شره ! إن الأقدار حولنا تصنع الكثير مما نفهم وما لانفهم ، وهذا الكثير يتحول إلى أسئلة عملية نجيب عليها بسلوكنا . ترى أنصبر في البأساء والضراء ؟ ترى أنشكر في النعماء والسراء ؟

إن البشر جنس محكوم ومختار في آن واحد ، إنه محكوم بالإمكانات التي في كيانه والملايسات التي من حوله ! . ومختار في موقفه من هذه وتلك . . . ونريد أن نقول مصارحين وحاسمين إننا لن نسأل أبدا عما لا إرادة لنا فيه . ولكننا نسأل يقينا عما نملك فيه حرية الاختيار ..

وبعض الناس يحلو لهم الخلط بين الأمرين أحيانا ، وهذا لون من الجدل المحقور والمشاقة لله ورسله . ولنا مع هؤلاء حديث قد يطول ...

(٩٦) الحديد : ٢٢

(٩٧) التوبة : ٥١

لقد شاء الله - لحكمة لا نعلمها - أن يخلقنا ويكلفنا . وقال في وضوح :
« خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » (٩٨) .
فجاء من يزعم أن الحياة رواية تمثيلية خادعة ! وأن التكليف أكذوبة ! وأن
الناس مسوقون إلى مصايرهم المعروفة أزلا طوعا أو كرها ! وأن المرسلين لم
يبعثوا لقطع أعذار الجهل ، ومنع الاحتجاج . المرفوض . بل المرسلون خدعة
تم بها فصول الرواية أو فصول المأساة .. !

والغريب أن جمهورا كبيرا من المسلمين يخضع إلى هذه الفرية . بل إن
عامة المسلمين يطوون أنفسهم على ما يشبه عقيدة الجبر . ولكنهم حياء من الله
يسترون الجبر باختيار خافت موهوم .

وقد أسهمت بعض المرويات في تكوين هذه الشبهة وتمكينها . وكانت
بالتالى سببا في إفساد الفكر الإسلامى . وانهيار الحضارة والمجتمع

إن العلم الإلهى الذى ذكرنا شموله وإحاطته وصّاف كشّاف . يصف ما
كان ويكشف ما يكون . والكتاب الدال عليه يسجل للواقع وحسب ! لا
يخلق السماء أرضا ولا الجهاد حيوانا إنه صورة تطابق الأصل بلا زيادة
ولانقص ، ولا أثر لها في سلب أو إيجاب ..

وعندما يذكرنا ربنا بهذا كله فلكى يكشف لنا جانباً من عظمتة حتى
نقدره حق قدره ..

وعندما نتعلم منه أن ما نجهل من مستقبل . هو مكشوف لديه فليس معنى هذا
أن الامتحان الذى نتعرض له صورى وأنتا مسوقون إلى هذا المستقبل برغم أنوفنا

إن هذه الأوهام تكذيب للقرآن والسنة . فنحن نجهدنا وكدحنا ننجو أو

نهلك . والقول بأن كتابا سبق علينا ذلك . وأنه لاحيلة لنا بإزاء ما كتب
أرلا . هذا كله تضليل وإفك لقوله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن
أنصر فليفسه ومن عصى فليعيا » (٩٩) « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر » (١٠٠)

والواقع أن عقيدة الخمر تطويح بالوحى كنه . وتزييف للنشاط الإنسانى من
بدء الخلق إلى قيام الساعة . بل هى تكذيب لله والمرسلين قاطبة
ولما كانت بعض المرويات مسئولة عن هذا البلاء فقد أحبيت أن أشرح
القضية بضرب بعض الأمثلة

قد يقول لك الأستاذ بعد ما خبر تلامذته فى قاعة الدرس : إنى أعتقد أن
فلان سوف ينجح وفلان سوف يرسل ثم يعقد الامتحان آخر العام
ويدخله الطلاب . فإذا رأى الأستاذ ينحقق ! فيقول لك مباحيا : إن كلامى
لا يقع على الأرض ، كان لابد أن يتحقق ماقلت !

هل معنى ذلك أن رأى الأستاذ هو الذى أنجح هذا وأسقط ذاك ؟ كلا .
إن ذلك نجح بجهد . وذاك سقط بعبء . وماقول الأستاذ إلا تصوير لصديق
حكمه (١٠١)

إن لله المثل الأعلى ، وعمه بكل شىء مستيقن ، وعلمه السابق الذى
لا يتحلف ليس سببا فى نجا ولا هلاك . إنه لا يتحلف لأنه علم الله الذى
يستوى عنده الماضى والحاضر والمستقبل وانظر بأن نجا وهلاك من هلك
هو أثر إكراه الله هذا وذاك هو من المظن السوء . وما أراه إلا كفرا !!

ومن ثم فإننا نتناول بنذر شديد ما جاء فى حديث مسلم « فوالذى لا إله

(٩٩) الأنعام : ١٠٤

(١٠٠) النكهة : ٢٩

(١٠١) استصح هذا المثل عند قراءة احاديث القدر !

غيره . إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ... الخ »

إذا كان الحديث المذكور تنويها بشمول العلم الإلهي . وأن بدايات بعض الناس قد تكون مخالفة لنهايتهم فلا بأس من قبوله بعد الشرح المزيل للبس . المبطل للجبر ..

أما المعنى القريب للحديث فرددود يقينا . وهو مخالف للكتاب والسنة . أو للعقل والنقل ..

وأذكر هنا : أن الإمام مالكاً في موضعه روى حديث عائشة - الذي نقله مسلم - « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن . ثم نسخن بخمس معلومات . فتوفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهن فيما يقرأ من القرآن » (!) قال الإمام مالك : ليس على هذا العمل .. ورفض الحديث وحق له أن يرفضه . وقد نبى مالك مذهبه كالأحناف على أن مطلق الرضاع يحرم .

ونحن نؤكد مرة ومرتين أنه ليس لروايات الآحاد أن تشغب على المحفوظ من كتاب الله وسنة رسوله . أو أن تعرض حقائق الدين للنهم والريب .

وقد قرأت ما رواه الترمذى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين » (١٠٢)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : سمعت رسول الله - صلى الله عليه

وسلم- يُسأل عنها فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره يمينه . فاستخرج منه ذرية . فقال : خلقت هؤلاء للجنة . وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح على ظهره ، فاستخرج منه ذرية فقال : هؤلاء خلقت للنار . وبعمل أهل النار يعملون . فقال رجل : يا رسول الله فقيم العمل ؟ قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله إذا خلق العبد للجنة . استعمله بعمل أهل الجنة . حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة . وإذا خلق العبد للنار . استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار»

وهذا السياق يكاد يكون نصا في الجبر، ولذلك نرفضه، ونراه من أوهام الرواة . بل نراه من الجهل بمعاني القرآن الكريم !

فإن هذا التفسير المنسوب لعمر يسير في اتجاه مضاد للتفسير البديهي المفهوم من الآيات البينات . الآيات تقول للمشركين عن رب العزة : لاوجاهة لكم عندي . ليس لكم عذر قائم ولاحجة ناهضة . إنني منحتكم عقلا يفكر وفطرة تبعث على التوحيد والاستقامة . وأنزلت ما يمنعكم من تقليد الآباء الجهلة . فلماذا تجاهلتم هذه المعالم كلها . وهتمتم على وجوهكم في طرق الشر والغواية . أفبعد هذا التفصيل والتوضيح تبعدون عني ولا ترجعون إليّ؟

هذا هو تفسير الآيات كما ينقدح في ذهن كل عاقل . وكما يثبت لأول وهلة في فهم القارئ العادي ..

ولنذكر الآيات كما وردت في القضية كلها :

«وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون » (الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤) .

فأين - يا أولى الألباب - آثار الجبر الإلهي هنا ؟ وأين ما يفيد أن الله خلق
ناسا للنار يساقون إليها راغمين ، وخلق ناسا للجنة يساقون إليها محظوظين ؟ إن
التعلق بالمرويات المعلولة إساءة بالغة للإسلام ، وينبغي ألا نتجاوز كتاب ربنا
وسنة نبينا ، فذاك نهج سلفنا الأول ...

كل ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس ،
وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين يهونون من الإرادة البشرية ، ومن أثرها في
حاضر المرء ومستقبله ، وكأنهم يقولون للناس : أنتم محكومون بعلم سابق
لا فكاك منه . ومسوقون إلى مصير لا دخل لكم فيه فاجهدوا جهدكم فلن
تخرجوا عن الخط المرسوم لكم مهما بذلتم ! .

إن هذا الكلام الرديء ليس نصح قراءة واعية لكتاب ربنا ، ولا اقتداء دقيق
بسنة نبينا ، إنه تخليط قد جنينا منه المرء ... !! .

يقول الله لكل بشر على ظهر الأرض : « فأقم وجهك للدين القيم من قبل
أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصدّعون . من كفر فعليه كفره ومن
عمل صالحا فلأنفسهم يمهّدون » (١٠٣) . فهل ربط الجزاء بالعمل هنا من قبيل
المزاح أو الخديعة ؟

وعندما يصف ربنا جزاء الكذبة والمكذبين ، ويذيقهم عقبي ما قدموا
ويقول : « فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا
يعملون . ذلك جزاء أعداء الله . النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا
يمحّدون » (١٠٤) .

هل هذا الربط المتكرر بين العمل والجزاء ؟ هل هذه النعمة المحسوسة على

(١٠٣) الروم : ٤٣ ، ٤٤

(١٠٤) فصلت : ٢٧ ، ٢٨ .

المجرمين ، نومي من قرب أو بعد إلى أن القوم كانوا أهل خير فلولى زمامهم قدر سابق ، أو كتاب ماحق ؟ ما أقبح هذا الفهم ! .

في يوم الحساب يحصد الناس مازرعوا لأنفسهم ، والقرآن حريص كل الحرص على إعلان هذه الحقيقة : وهى إنك واجد ما قدمت ! لن تؤاخذ أبدا بشيء لم تصنعه . لم تغلب على إرادتك يوما فيحسب عليك ما لم تشأ ... إن المغلوب على عقله أو قصده لا يؤاخذ أبدا ، بل إن التكليف يسقط عنه !! .

وتدبر قوله تعالى : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . منع للخير معتد مرب . الذى جعل مع الله إلها آخر فآلقياه في العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد (١٠٥) » .

ربنا سبحانه وتعالى ينفي الظلم عن نفسه . ويقول إنه ما عذب إلا من قرط وأساء .

ومع ذلك يحيى أقوام منا فيزعمون أنه رمى بناس في النار بعد أن قهرهم على طريقها ، وأنه لا يُسأل عما يفعل !! وليس بظالم فيما أوقع بعباده !! . هذا تفكير أعمى لا يتصل بفطرة الله ولا بوجيه ويجب فطام العوام عنه !! . وسبب هذا الشرود : سوء الفهم للآيات ، وسوء النقل للأحاديث ..

ولنضرب أمثلة لما ذكرنا : إن الحق يُعرض على الناس ، فن قبله شرح الله به صدره ، وأنار عقله ، ومن أبى زاد الله قلبه ظلمة وسلوكه حيرة ..

وعندما يضل الله مجرما فلن ينقذه أحد . ولن يجد وليا ولا نصيرا ، وفي هذا يقول الله تعالى : « من يضل الله فلا هادى له . ويذرهم في طغيانهم يعمهون » (١٠٦) .

الجملة الأولى في الآية تفيد أن من عاقبه الله بالإضلال فلن ينفعه أحد ،
والجملة الثانية تفيد أنه إنما أضله لطغيانه وعماه .

لكن البعض يقف عند الجملة الأولى وينسى الثانية أو يفهم أن طغيانه
جاء نتيجة إضلال الله له وهذا جهل كبير ، فإن إضلاله جاء نتيجة طغيانه ،
فالإضلال نتيجة لا سبب .

ويؤكد هذا قوله تعالى في موضع آخر : « قل من كان في الضلالة فليمدد
له الرحمن مدداً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون ، إما العذاب وإما الساعة
فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا . ويزيد الله الذين اهتدوا
هدى ... » (١٠٧) .

وقد يحىء بعض الناس إلى آية يقف عقله الكليل عندها فيفهمها فهما
مقلوبا مثل قوله تعالى : « فله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » (١٠٨) .
أو قوله سبحانه : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني
لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (١٠٩) .

إنه يفهم أن الله خلق للنار ناسا ، وخلق للجنة آخرين ، ثم دفع هؤلاء
دفعاً إلى النار ودفع هؤلاء دفعاً إلى الجنة ، وقد سبق بذلك كتابه !!

وهذا كله جهل ، فالآيات تعني أن الله كان قادراً على أن يخلق الناس
كلهم ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ! لكنه - وهو المريد
المختار - صنع البشر على مثال آخر ، أو على نموذج فيه صلاحية للعوج
والاستقامة ، وأدخلهم في مسابقة عامة أو في اختبار حرّ وسوف تمتلئ النار
بالساقطين وتمتلئ الجنة بالناجين ...

(١٠٧) مريم : ٧٥ ، ٧٦

(١٠٨) الأنعام : ١٤٩

(١٠٩) السجدة : ١٣ .

نعم هو من بدء الخلق يعرف ماسيكون . لكن علمه مبنوت الصلة بنجاة من نجا وهلاك من هلك .

وقد يتقعر البعض ويقول : ما تم شيء إلا بإذنه ! ولكي نجيب على هذه الشبهة نقول :

إن المجرم يذهب إلى حقل قح ناضج السنابل حافل بالخير ، فيشعل النار فيه . فإذا قبض عليه يقول : ما كانت النار لتشتعل لولا «الأوكسيجين» الذي خلقه الله في الهواء ! ولو خلا الجو من هذا العنصر ما احترق الحقل . فالله هو المسئول عن جرمي ، إذ بإذنه تمت !.

إن إرادة الله ماثوثة في كل شيء . ولو قهرتنا على عمل ما حوسبنا ، إننا نحاسب على ما قدمت أبدينا ولن نستطيع شرح العلاقة بين إرادة الله المحيطة ، وبين الحرية المتاحة لنا في الاتجاه إلى اليمين أو الشمال ...
وتصيد الشبهات للفرار من المسئولية لا يجدى .

وكل أثر مرويّ يشغب على حرية الإرادة البشرية في صنع المستقبل الأخرى يجب ألا نلتفت إليه ، فحقائق الدين الثابتة بالعقل والنقل لا يهدّها حديث واهى السند أو معلول المتن .

لكننا مهما نوهنا بالإرادة الإنسانية فلا ننسى أننا داخل سفينة يتقاذفها بحر الحياة بين مدّ وجزر ، وصعود وهبوط ، والسفينة تحكمها الأمواج ولا تحكم الأمواج .

ويعنى هذا أن نلزم موقفا محددا بإزاء الأوضاع المتغيرة التي تمر بنا .

هذا الموقف من صنعنا وبه نحاسب ! أما الأوضاع التي تكتنفنا فليست من صنعنا ، ومنها يكون الاختبار الذي يبتّ في مصيرنا .. !

إن جرائم الأمراض تملأ الجو . ولو أن كل عدوى تصيب هلك البشر !

وإلا ، فاقية جهاز المناعة الكامن في أجسامنا ؟ وكيف يحمي ؟ وكيف يفشل ؟ .

والصبغات المورثة للخصائص المادية والنفسية والفكرية . مانصبنا منها ؟
إن ذلك ليس إلينا وإن حدد المجال الذى يتم فيه اختبارنا . ! .

إن الفلاح يرمى في التراب حفنات من البذور . قد ترتد إليه قناطير
مقنطرة . وقد تعود عطاء محدودا . وقد تذهب سدى ! وجهود الناس في
الدنيا تتبع هذا المسار ..

وقد نعزم وينفك عزمنا من تلقاء نفسه ، وقد تعترضه عوائق تعصف به لأنه
لا يطبق مواجعتها ..

وقد نطيع حافزا نفسيا عابرا فيبلغ بنا إلى القمة أو يهوى بنا إلى القاع ...

إن الإنسان عبد لله . وليس إله على ظهر الأرض . وقد شاء الله أن يخلقه
على نحو خاص ، فليس جمادا ، ولا دابة ولا ملكا ..

وبهيمته أن يعبد ربه . وأن ينجح في أداء هذه العبادة ، وأن يقهر المشبطات
والعقبات ، فإن نجح نجح ، وإلا طاح !! .

ولن يغنى عنه أن يقول : إني « جماد » لا إرادة لي .. أو أنني ورقة تطير بها
الريح وتهبط . كلا . إنك إنسان مكتمل المشيئة في كل ما يركى نفسك أو
يدنسها . والفسوسة لا تجدى « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى
ولا كتاب منير . ثانی عطفه ليضل عن سبيل الله . له في الدنيا خزي ونذيقه
يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام
للعبيد » (١١٠) .

وبعد انتهاء الحياة تعود الأرواح إلى بارئها . ونحن أمام موقفين متضادين ،
هناك من قضى عمره كدحا إلى الله وجهادا في سبيله . وهناك من عاش ذاهلا

غادرا لم يقيم الله بحق . . أما الأولون فإن الملائكة تستقبلهم بالترحاب والود .
تقول لهم «... ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون» (١١١) .

وأما الآخرون فلاستقبال عابس . والأفق ملىء بالدخان والندى . لقد
واجه كل امرئ منهم ما كان ينكر . وعلم علم اليقين أنه كان في ضلال مبين !
إنه يتمنى في هذه اللحظة المستحيل . يتمنى لو عاد إلى الدنيا مرة أخرى كي
يستأنف حياة أهدي ... !!

«حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما
تركنا كلاً إنها كلمة هو قائلها . ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» (١١٢)

وقد أخصيت في كتاب آخر نحو عشرة مواضع تكررت فيها هذه المنى !
وهيئات فليس لامتحان العمر ملحق ، ولا دور ثان يستدرك فيه المفرط ما
فات ..

وهذا الندم - بعد فوات الأوان - ينطق بحقيقة واحدة . شعور المحرم أنه
هو الذي ظلم نفسه ، وهو الذي صنع حنقه بظلفه !

إنه لن يحاول الكذب فيقول : كنت مجبوراً على ما كان مني . أو سبق
على كتاب بما لم أرد لنفسي !

ولو أنه حاول الافتراء لأخرس الله لسانه . وأنطق أركانه بما حدث . إن
الله لا يكره أحداً على طريق الشر ثم يدخله النار ! ومن تصور هذا فهو جاهل
بالله طائش العقل ...

ومن المنتمين إلى ديننا من يتصور ذلك - للأسف الشديد - ويحاول إساغته
بترهات لا تقال . ونشرح هنا موقف الضالين كما صورته سورة المؤمنين
وحدها :

ليس العمر ساعة واحدة. إنه ساعات شتى. بعضها يسر وبعضها يضّر.
 ليس العمر موقفاً واحداً ، إنه مواقف بعضها يشرف وبعضها يخزى ، والمهم
 هو المحصل الأخير ! « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا
 يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه
 فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار وهم فيها
 كالحون » (١١٣)

ولنتدبر هذا الحوار بين رب العزة وبين الأشقياء المسجونين في جهنم ! إنه
 يقول لهم : « ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » (١١٤) ؟ ترى ما جواب
 القوم ؟ إنهم يطلبون فرصة أخرى ينجحون فيها بعد هذه الفرصة الضائعة !
 يقولون : « ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا
 ظالمون » (١١٥)

ويستمع رب العزة إليهم ، ثم يرد بما معناه : كان على الأرض عمل ولا
 حساب أما هنا فحساب ولا عمل . إنها فرصة واحدة توات الرسل للحث على
 انتهازها ، لكن المجرمين كابرُوا وكذبُوا يقول الله لهم : « اخشوا فيها
 ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون : ربنا آسفنا فاعفُر لنا وارحمنا وأنت
 خير الراحمين . فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم
 تضحكون » (١١٦)

هذا تذكير بأيام الطغيان الأولى . لظالماً وثب الزائفون الطاغون على
 جمهور المؤمنين الضعفاء فأذاقوهم عذاب الهون ، وكانوا منهم يسخرون !
 ها قد تبدلت المواقف وتغيرت الأحوال . ورجحت كفة الخير . وجنى
 الصابرون عقبي ماتحملوا وأملوا ...

(١١٥) المؤمنون : ١٠٦ - ١٠٧

(١١٣) المؤمنون : ١٠١ - ١٠٤

(١١٦) المؤمنون : ١٠٨ - ١١٠

(١١٤) المؤمنون : ١٠٥

ويقول الله سبحانه خاتما الحوار : «إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون» (١١٧).

أترى في هذا الحوار أثارة من ظلم نزلت بمعذب ؟ أجرؤ أحداً أن يفترى على الله كذبا فيقول له : إنك كبت على ما كبت ، والآل تؤاخذنى بما لم أستطع الفرار منه ؟.

إن تصوير القدر على النحو الذى جاءت به بعض المرويات غير صحيح . وينبغي ألا ندع كتاب ربنا لأوهام وشائعات تأبأها روح الكتاب ونصوصه ... القرآن قاطع في أن أعمال الكافرين هي التي أردتهم «يأبىها الذين كفروا لاتعتدروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون» (١١٨) . وقاطع في أن أعمال الصالحين هي التي نجت بهم «ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» .. (١١٩)

فلا احتجاج بقدر ، ولا مكان لجبر .

وعلى من يسيئون الفهم أو النقل ألا يعكروا صفو الإسلام وعندما كنت أكتب هذا البحث وقعت في يدى كلمة جميلة للأستاذ أحمد بهجت عنوانها «المغفلون» رأيت إثباتها لغرض سينكشف بعد قليل ...
- «هناك ناس يحبون الله .. وهناك ناس يكرهون الحق ..

هناك ناس تخشع قلوبهم لذكر الله وهناك ناس يشتمون إذا تعلق الأمر بالحق .

هناك ناس يحبون الدين ، ويحبون أن تشيع الفضيلة في الناس وأن تنتشر

(١١٧) المؤمنون : ١١١

(١١٨) التحريم : ٧

(١١٩) الأعراف : ٤٣

القيم بينهم ، وهناك ناس يكرهون الدين كرههم للعمى ، وهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الناس . وأن ينتشر العرى لتسقط العيون الجائعة عليه كما يسقط الذباب على اللحم المكشوف » .

والصراع بين المؤمنين والكافرين جزء من سنة الحياة .

لقد خلق الله ناسا هم أهل للجنة . وخلق ناسا هم أهل للنار ، والذين يدخلون الجنة يدخلونها برحمة الله وعفوه . والذين يدخلون النار يدخلونها بإصرارهم واختيارهم وحرمتهم المطلقة . ولا حجة لأحد على الله عز وجل . لقد أقيمت الحجة على الناس .. في مطرتهم وفي آيات الله في الكون . والأصل المعروف هو استغناء الله تعالى عن الخلق ، وحاجة الخلق إليه « يأياها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » (١٢٤) .

ونحن نعرف أن عبادة العابدين لا تزيد في ملكه سبحانه ، كما أن كفر الكافرين وإلحاد الملحدين لا ينقص من ملكه سبحانه شيئا . الدين فائدة للناس لا فائدة لله .

واتباع الدين لخير الناس لا لخير أحد غيرهم . ومن هنا نرى المغفلين عادة يقفون في المعسكر المعادى للدين .

وقد وصف المغفلون بأن لهم أعينا لا يبصرون بها ، وآذان لا يسمعون بها . وقلوب لا يفقهون بها . (١٢١) .

أيضا تمت مقارنتهم بالبهائم . وصرح النص القرآني أن الأنعام أهدى منهم . « أولئك كالأنعام بل هم أضل ... » (١٢٢) .

(١٢٠) فاطر : ١٥

(١٢١) إشارة إلى قوله تعالى . « ولقد درأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها .. » الأعراف : ١٧٩

(١٢٢) الأعراف : ١٧٩

وقد كان الرسول يحزن لتكذيب الناس له ويدهشه هذا الغلو في العداء واللد في الخصومة . وأفهمه الله تبارك وتعالى أن الناس لا يكذبونه ولكن انظالمين بآيات الله يححدون . والظالم مغفل كبير ، إنه يشتري النار بإرادته واختياره ، وليس بعد هذا التغفيل تغفيل .

وانظالم يكسب الدنيا ويخسر الآخرة . وهذا أيضا تغفيل عظيم ..
لأن الدنيا إذا قيس بالآخرة كانت أقل من جناح بعوضة . نسأل الله السلامة .. ١ هـ

وهذا كلام صادق ، حسن الوقع والثمر . وقد أثبتناه بين يدي كلام آخر لا يزيد أمنا إلا سقاما . ذكره أحد الواعظين في مجال تخويف الناس من الله حتى يدعوا الرذائل ! انظر كيف خوفهم من الله ؟ قال : إننا مهما عملنا من خير لا نعرف مصايرنا . وقد نكون من أهل النار ونحن لا ندري .. !!

ثم ذكر أحاديث في القدر لا تخدم إلا مبدأ الجبر . بل تجعل العصاة بمضون مع المنحدر إلى نهايته لأنهم يحسّون فقدان الإرادة التي تسيطر على الأمور . وأغلب المسلمين تساورهم هذه الظنون المجنونة لأنهم فهموا أن المثوبة والعقوبة حظوظ عمياء ، أو مصادفات ليست لها ضوابط .

ونحن نتلو قوله تعالى : « قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا .. » ؟ ولكن الله القدير الحكيم العدل القائل : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » لا يخلق ناسا للنار لمجرد أنه يريد لهم العذاب

ولنذكر طرفا من هذه الأحاديث :

جاءت في القدر أحاديث كثيرة . نرى أنها بحاجة إلى دراسة جادة ، حتى يبرأ المسلمون من الهزائم النفسية والاجتماعية التي أصابتهم قديما وحديثا ..

روى أبو داود عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه قال لابنه عند الموت : يابني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ! قال : يارب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى يوم القيامة . يابني إني سمعت رسول الله يقول : من مات على غير هذا فليس مني ! .

وفي رواية أخرى للترمذى ، ما يؤكد هذا الحديث .

وقد علق الشيخ محمد حامد الفقى على الحديث ورواه بأن فى السند منها بالوضع ، ومتروكا ، ومنكر الحديث !!

ومع ذلك فنحن مع تهافت الأسانيد نرى فى المتن جملا مقبولة تتلاقى مع دلالات القرآن القرية والبعيدة ، وتتفق مع العقيدة الصحيحة : وهى أن الله أحاط بكل شيء علما ، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وعلينا بعد ذلك أن نكافح لنضع مستقبلنا فى الدار الآخرة غير وائين ولا متقاعسين ..

المشكلة تكمن فى أحاديث أخرى صحيحة السند . غير أن متونها تقفنا أمامها واجمين ! لنبحث عن تأويل لها أو نخرج .

خذ مثلا حديث عائشة رضى الله عنها قالت دُعِيَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جنازة غلام من الأنصار . فقلت : يا رسول الله ، طوبى لهذا ! عصفور من عصافير الجنة . لم يدرك الشر ولم يعمل ! قال : أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله عز وجل خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ! وخلق للنار أهلا ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ! .

وخذ مثلا حديث سهل بن سعد أن رسول الله قال : « إن الرجل ليعمل

يعمل أهل النار وإنه لمن أهل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار !! .

وخذ مثلاً حديث عبد الله بن عمرو قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله خلق خلقه في ظلمة . فألقى عليهم من نوره ! فمن أصابه من ذلك النور اهتدى . ومن أخطأه ضل ! فلذلك أقول : جفَّ القلم على علم الله تعالى ! » .

وهناك أحاديث كثيرة تدور على هذا المحور ، وهو أن الإنسان مسلوب المشيئة . وأنه مقهور بكتاب سابق . وأن سعيه باطل لأنه لا يغير شيئاً مما خُطَّ عليه في الأزل .

نقول : هل صحيح أن سعى الإنسان باطل ؟ فلماذا يقول الله تعالى عن يوم الحساب : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » (١٢٣) .

ولماذا يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (١٢٤) .

إن الله تبارك وتعالى يطلب من الإنسان أن ينصف نفسه من نفسه ! وأن يعترف بأنه أخطأ حيث ينبغي أن يصيب . وأساء حيث يستطيع أن يحسن . ولذلك يقول له : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٢٥) .

فهل يقال له ذلك وهو مجبور مسكين ؟ أم يقال له ذلك وهو حر مختار ؟

إن ظواهر الجبر في هذه الآثار كلها مرفوضة عند علماء الإسلام . وأمامنا أمران لا ثالث لهما . إما صرف هذه الظواهر إلى تأويل قريب مقبول !

(١٢٥) الإسراء : ١٤

(١٢٣) طه : ١٥ .

(١٢٤) النجم : ٣٩ - ٤١

وإما اعتبارها آثارا بها علة قاذحة تسقطها من درجة الصحة . وإيرادها في مجال التربية والتعليم لا يجوز .

وقد استطعت بشيء من التكلف أن أصرف شبهة الجبر عن آثار شتى ! لكنني لم أستطع إصلاح عقول تريد أن تسوق الإسلام كله إلى أحاديث غير واضحة . تظهر عليها العلل القاذحة .

يقول الله سبحانه في الأمم التي حكم عليها بالهلاك : « .. وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى .. » (١٢٦)

الله يعاقب مقتري السيئات بالسوأى . فهذا عدله . ولو شاء عفا ، وهذا حقه .

ولكنه لا يظلم مثقال ذرة ... ومن العجب أن ننسب إليه الجبر ثم نقول لا يسأل عما يفعل ! إن الذين يخطئون في الفهم ويحورون في الحكم لا ينبغي أن يسقطوا عوجهم الفكري على دين الله ...

والله ولي التوفيق . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

خاتمة

ضعف الوعي القرآني جريمة !
السلسلة الذهبية لا تشفع لمن مناهت ... الققه مع
المحدث بضبطان السنة النبوية لا يسأل الرجل : فيم ضرب
امراته ؟ .
جزيرة المسيح الدجال ! .
لا علاقة للمرأة بانجاب ذكور ولا إناث .

المنهج الذى هدانى الله إليه - وله المنة - أن أعرف الرجال بالحق . ولا أعرف الحق بالرجال ! وأن أنظر بتأمل إلى ما قيل ولا أنظر بتنبؤ إلى ما قال ! .

والوصول إلى الحق يحتاج إلى الذكاء قدر ما يحتاج إلى الإخلاص . ومن ثم منح الله أجريين لمن عرفه ! ومنح أجرا واحدا لمن أخطأه وهو حريص على بلوغه ..

وبعض الناس يظن أن خطأ مجتهد ما قضاء على مكانته . ونسف لشخصيته . وهذا جهل كبير ! فما أكثر الأخطاء التى وقع فيها مجتهدون من كبار الأئمة ...

إن بناءهم العلمى شاق ، والخير الذى انفجر منهم دافق ، فلا تهدمهم قذاة . أو تترى بهم كبوة ! واندهم عندنا ميالون إلى القول بعصمة الأكابر ، ونحن لا نعرف فى تاريخنا إلا معصوما واحدا . هو محمد بن عبد الله صاحب الرسالة الخاتمة ...

وقد نقدت مرويات جاءت فى الصحيح رأيتها تمس الصميم من ديننا ! وتفتح ثغرات مخوفة ينفذ منها عدونا . ما قصدت بذلك أن المزكبرا أو أضع من قدره . ولا قصدت بذلك أن أرفع خسيئتي ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وإنما كان نصحي لله ورسوله ومصلحة الدين الذى شرفت بالانتماء إليه والدفاع عنه ..

من ذلك اعتراضى على نقل أو رأى لنافع مولى عبد الله بن عمر بن أميرين
حساسين بتصل أحدهما بالأسرة والآخر بالدعوة أو الدولة ، رأيت التابعى الكبير
تورط فيها تورطاً مفرعاً مسيئاً ، ولا يحوز السكوت !

كلنا يقرأ قوله تعالى « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » والحرث
مكان البذر لا غير . لا يقول بغير ذلك أحد يعرف لغة الوحي ..

بيد أن فيها شاذاً أثبتته فى الصحاح من لا يدققون فى المتن رأوا فيه أن الرجل
يستطيع أن يتجاوز ذلك من زوجته ! .

ونظرت - بتجرد - إلى هذا النقل السيئ فرأيتته يخزى النساء الخرائر .
ويرضى الرجال الشواذ ، ويقلب موازين الفطرة . ويفتح باباً جديداً لمرض
« الإيدز » فلم أترى فى رفضه ، وقلت : لكل جواد كبوة ! .

ونافع غفر الله لنا وله ، برأيه هذا أو بروايته يخالف دلالات القرآن . وسننا
أخرى أثبتنا الرواة كما يخالف طبائع الأحياء من أناسى ووحوش ودواب ...

ولكن ناساً فى عصرنا ما كادوا يقرؤون ما كتبت حتى انبروا لمهاجمتى والنيل
منى . وليس هذا بضائرى ! وإنما لفت نظرى أن القضية العلمية لفها ضباب
مفتعل ، فلم تُبحَث ، ولم يُذكر حكم الله فيها حتى لَحِئِلَ إلى أن التجهيل فى
الحكم مقصود !! والصياح الذى طال حبله هو : .

أنتعرض على نافع يا ... أتشكك فى السلسلة الذهبية يا ... أنكذب السنة
النبوية يا ... إلخ وتحول الاعتراض إلى عواء يُسمع صدهاء من قريب ومن بعيد ،
فذكرت قول الشاعر :

كريم أصابته ذئاب كثيرة فلم يذر حتى جئن من كل مذهب !

قلت : لابد من إنصاف الحقيقة العلمية التى كادت تختفى مع هذا العواء ،
نعرف الرجال والنساء أن ما حكاها نافع باطل ، وإن إفساد الدين لا يستطيعه
بعض المتحمسين العميان من عبيد الأسماء .

قلنا : إن الشهوة الجنسية ليست رجسا من عمل الشيطان إذا تمت في نطاقها المرسوم . هذا النطاق هو الزواج . وهو لا يتم عقلا ولا نقلا إلا بين رجل وامرأة ، أما ما وراء ذلك فـدَنَسٌ مرفوض .

وانجتمعات الوثنية ، والملحدة . تمدُّ رقعة الشهوة فلا تقف عند حدٍّ . وقد لاحظنا ذلك في الجاهليات القديمة والحديثة على سواء .

نشأت علاقات شاذة لا يبقى بها النوع ! وإذا بقى فعلى نحو خبيث شرير كما قال تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه . والذي خبث لا يخرج إلا نكدا . . . »

وقد كان المشركون العرب يفتنون في إرواء ظمئهم الجنسي . يشبههم في ذلك الأوربيون والأمريكيون اليوم فهم يتعدون دائرة الحلال المباح إلى دائرة أخرى مليئة بالمستنقعات والأوبئة .

وعندما تحدث القرآن الكريم عن قوم لوط ذكر أوصافا محددة . هي الإسراف ، والعدوان ، والجهالة ، والإجرام والإفساد وما يتصل بهذه المعاني المظلمة ..

وقد لاحظت أن أكثر ذلك كان في القرآن النازل بمكة قَمْعاً لغرائز السوء . وتذكيرا بمصاير الهالكين « أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون ... » .

ثم بدأت شرائع الأسرة في المدينة المنورة إقامة لمجتمع فاضل طاهر ، وشرح القرآن الكريم أن المرأة سكن لزوجها . ونبع يفيض بالود والرحمة ، وأن العلاقة بينهما تبلغ حدَّ الامتزاج « هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وأن المقصود ليس إنشاء ذرية مَّا ببقى بها النوع ! بل إنشاء ذرية صالحة تزيد بها الحياة كما وكيفاً ، ومن ثم فلا مكان لشذوذ أو عدوان أو فساد .

ولا يجوز أبدا أن يستضعف الرجل امرأته فيرتكب معها ما لا يليق . فعن

عبد الله بن عمرو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : هي اللوطية الصغرى ! « يعنى الرجل يأتى امرأته فى دبرها » . وعن عمر بن الخطاب قال رسول الله : « استحيوا فإن الله لا يستحي من الحق ولا تأتوا النساء فى أدبارهن » ! وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال : « استحيوا من الله فإن الله لا يستحي من الحق !! لا يخلأ منك النساء فى حشوشهن » يعنى فى غير الحرث .

وقد قصَّ على صديق ثقة أن طالبة مطلقة طلبت منه أن يستمع إليها بعيدا عن الزميلات ! قال : كانت بادية الغضب تبغ حد الهياج . سألته أتستطيع أن تضع فى عقد الزواج شرطا يصون كرامتها ؟ قال : ما هذا الشرط ؟ فتمعَّ وجهها وتهدج صوتها وقالت نحن بشر ! لسنا بهائم .. وخفَّت حديثها واستحيت من إتمامه . ولكنه عرف أن الزوج الذى طلقها أو طلقته كان شاذا .

فى عالم البهائم تكثره الأنثى - بعد أن تحمل - أن يتصل بها ذكر . لأن المقصود تمُّ وهو الحمل ! .

أما فى عالم الإنسان فالصلة أرقى وأزكى لأن التواصل فى مهاد الأسرة استدامة للسكن المنشود والودَّ المتبادل .

وأريد أن يعرف المسلمون الحكمة العليا من الزواج فىكون كلا الزوجين امتدادا لسعادة الآخر ولا يتم ذلك إلا بالأسلوب المشروع .

وإنى أطلب من الزوجة التى يشد زوجها أن توبخه وأن تعنفه ، وقد جعل ابن تيمية ذلك ذريعة إلى أن يحكم القاضى بالطلاق ..

من أجل هذا كله رفضنا ما رواه نافع غفر الله لنا وله ، وإن تعصب له من لا يفقهون .

لقد ابتلى الإسلام بأعداء يتقصون أطرافه من الخارج ، كما ابتلى بأعداء

يشوهون حقائقه من الداخل . ولعل العدو الداخلي أنكى من العدو الخارجي .. ! .

لقد رأيت مرويات كثيرة لا تستحق الحياة ، ومع ذلك فقد ضربت حتى زاحمت على الصدارة ! .

والعنة في هذه الفوضى غفلة أهل الإيمان . واسترسالهم أحيانا مع الظنون ..
إن أكذوبة الغرائق لم يضعها مستشرقون وإنما وضعها ناس عندنا فقدوا الوعي والتقوى . وأكذوبة أن الرسول عشق بنت عمته زينب بعد ما زوجها من زيد بن حارثة !! فرية بلغت الغاية من الغثاثة والسخف ، ومع ذلك وجدت من يرونها ..

ومن قديم وعلماء الإسلام النقدة يحمون الحقيقة ويزودون عنها الخرافيين وذوى الأهواء ..

وقد رفضت دون تردد ما فهمه البعض من أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد يغير على الناس دون دعوة . ويأخذهم على غرة ، فلا يدرى القليل لم قتل ؟ ولا يدرى الجريح لم جرح ؟ .

الإسلام بطبيعته دين دعوة ، يقول لك تعلّم وعلم ، اقتنع وأقنع غيرك ، انقل الحق وأعل مناره حتى يستطيع الآخرون السير على شعاعه « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير... » .

والبلاغ يجب أن يكون مبيتا حتى ينتقل الموضوع من صدرك إلى صدر سامعك ، وتكونوا سواسية في الاستبانة والوعي ! .

وهذا ما عته الآيات « قل : إنما يوحى إلى إنما إليكم إله واحد . فهل أنتم مسلمون . فإن تولّوا فقل آذنتكم - أعلمتكم - على سواء . وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون » .

وقد كان التوحيد - ولا يزال - يشقّ طريقه بصعوبة . وتكتم الأفواه

لصياحة به . ويحتمد القتال من اجل حقه في الحياة . وقد أمر المسلمون أن تكون دعوتهم إلى الإسلام - قبل الاشتباك - هي آخر ما يقطع الأعذار ! .

لقد كانوا يدعون فقاومهم الفتانون . وهاهم أولاء قبل الحرب يدعون ليستجيب لهم من يؤثر الحق والسلام . والتبعة بعد هذا على عبدة الأوثان . ولا عدوان إلا على الظالمين . كما قال الرسول الأمين ...

فهل صحيح أن الدعوة كانت في صدر الإسلام ثم نسخت ؟ كما فهم نافع موف عبد الله بن عمر ؟ .

هذا الفهم مخالف للكتاب وللسنة وللواقع التاريخي .

ولنفرد هذا الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن يريدة رضي الله عنه قال : « كان رسول الله إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى . ومن معه من المسلمين خيرا . ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله . فقتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا . ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ادعهم إلى الإسلام ! فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . »

ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم . فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين إلى أن قال :

وإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم .. فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم .. » .

والذي تلفت انظر إليه بادئ ذي بدء أن هذا الحديث قبل في أواخر العهد النبوي ! لأن ذكر الجزية ورد فيه . والجزية لم تعرف في الشريعة إلا بعد نزول

سورة براءة . وهذه السورة نزلت في آخر السنة التاسعة من الهجرة ، أى قبل وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعام تقريبا ...

ويعنى هذا التحقيق التاريخى أن الدعوة كانت قائمة أول حياة الرسول وآخرها . وأن الزعم بنسخها لا أصل له . وأن نافعا غفر الله له جانبه التوفيقى فهمه ! .

بل إن ابن هشام فى سيرته كان أولى بالحق عندما ذكر أن بنى المصطلق بلغتهم الدعوة وأنهم - حين بلغتهم - قرروا رفضها . وانخاروا جانباً كى يأخذوا أهبتهم للقتال ! ثم فوجئوا بالغارة التى أجهضت استعدادهم ، وفضت جموعهم .. على أن الأمر كله بحاجة إلى إيضاح . فقد كان المسلمون بعد تسعة عشر عاماً من بدء الدعوة يُعدُّون خوارج على القانون ! كان المشركون يشتمون من عقيدة التوحيد ، ويبطشون بجميع دعائها لو استطاعوا ! .

ومع أن عهد الحديبية منحهم اعترافاً بوجودهم المادى والأدنى إلا أن هذا العهد سرعان ما خرجت قريش عليه . وعادت جزيرة العرب سيرتها الأولى فى التعصب للوثنية وعبودها وحدهم .

إن العرض الذى وضعناه تحت أعين المشركين وهو « لكم دينكم ولى دين » استبعد وتنوسى وأمسى المسلمون أحوج أهل الأرض للدفاع عن أنفسهم وإقامة دولة تحمى عقائدهم وشرائعهم ، وترغم الوثنية على احترام الحرية الدينية ... وأقول : ما أشبه الليلة بالبارحة إنه محظور علينا أن نحيا بالإسلام كما نريد . ولأنترك هذا الشجن لأذكر أثراً آخر يعرف منه القراء خلق رسول الله ، ومبلغ حرصه على حقن الدماء . ورفضه الشريف لقصة « الغارة بلا إنذار » التى توهمها بعض الرواة ! .

روى أبو داود عن الحارث بن مسلم عن أبيه قال : بعثنا رسول الله فى سرية ، فلما بلغنا المغار - مكان المعركة - استحثت فرسى ، فسبقت أصحابى .

فتلقاني أهل الحى بالمرين ! فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله نحرزوا . فقائوها !
فلامنى أصحابي وقالوا حرمتنا الغنيمة (٥) ...

فلما قدمنا على رسول الله أخبروه بالذى صنعت فدعاني . فحسن لى ما
صنعت ! ثم قال لى : أما إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان منهم كذا وكذا
من الأجر ..

وقال : أما إني سأكتب لك بالوصاة بعدى . ففعل . وختم عليه . ودفعه
إلى !! .

إن محمدا - عليه الصلاة والسلام - أشرف من أن يأخذ الناس على غرة .
وعلى الذين يقرؤون الأحاديث أن يتفقهوا . وأن يدرسوا الملبسات والتواريخ
والأحوال ، وقد قلت ومازلت أقول لا سنة بلا فقه ...

إننا مع تدبر القرآن نعرف أسلوب الدعوة فى العرص والإقناع . ومع دراسة
التاريخ نعرف أن الوثنيين كانوا الحق لآخر رمق . وأن الوثنية إلى آخر قاداتها
مسبلمة احتقرت البرهان ! واعتسعت الطريق . فلم يكن من السيف بد . ولست
نحن الذين نختل الدنيا أو نستبيح الناس .

فقهاء السيرة والتاريخ والأخلاق يعلمون أن الدعوة إلى الإسلام فريضة لا
يقدر أحد على الغائها . وأن هذه الدعوة عامة لا يحدّها زمان ولا مكان وأنها -
تأكد - قبل نشوب الحرب خاصة - .

وقد شرحنا فى كتبنا الأخرى أسباب القتال ، وأنها كما تكون دفاعا عن
الحقائق والحقوق تكون تأمينا لمسار الدعوة من الفتّانين والمُعُونين ..

أى أنى أعرض ما عندى على الناس بأدب وتلطّف . فإذا قال لى أحد :
أنصرف عني ، لا أحب أن أسمعك ، ولست لك عدوا ولا صديقا ، اذهب إلى

(٥) طلاب الغنيمة لا يعلمونهم عصر وفهمه برز قوله تعالى : إداصرتم فى سبيل الله فنبسوا ولا تقولوا
لن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبغون عرض الحياة الدنيا .

غيرى ولا شأن لى بما تصنع معه أو بما يصنع معك . !

فإننى والحالة هذه أتركه غير مفكر فى إلحاق أذى به . منفذا قوله تعالى .
« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

هل الرومان الذين احتلوا مصر والشام وساقوا جيوشهم إلى الحجاز من هذا
القبيل ؟ لا ، إنهم دخلوا بلادنا غزاة وأقاموا بها معتدين .

وكانوا بأقوالهم وأعمالهم وأحوالهم مصادر ضغيان وفتنة . ومائد من تحرير
الأرض منهم وإعادتهم من حيث جاءوا .

وترك الشعوب بعد ذلك حرة تعتق الإسلام إذا شاءت أو تتركه مع المشاركة
فى أعباء الدفاع العسكرى عن الأرض التى كانت مستعمرة ثم حررها الإسلام

هل الفرس أحسن حالا من الرومان ؟ كلا إن كسرى أصدر أمرا بالقتل
على محمد بعد ما مزق رسالته . وكان حبهذ يخلون العراق . وموقفه حاسم فى
رفضه الدعوة والنداء . فما يخوز تركه ! تلك هى هى الأسباب الأولى للفتوح .

وقد حرص الخفاء والأمراء وقادة الجند ألا يشبكوا فى حرب إلا بعد دعوة
متأنية واضحة مفصلة . وهات هذه الوقائع من « حياة الصحابة » التى يجهلها
للأسف بعض أدعياء السلفية . ممن صدقوا أن الرسول يأخذ الناس على غرة !
أو أن الدعوة كانت ثم العيث . كما توهم مولى ابن عمر ..

جاء فى كتاب « حياة الصحابة » تحت عنوان . دعوة الصحابة إلى الله
ورسوله فى القتال على عهد أبى بكر . ووصية أبى بكر الأمراء بذلك .

أخرج البيهقى (ج ٩ ص ٨٥) وابن عساكر عن سعيد بن المسيب أن أبى بكر
رضى الله عنه لما بعث الجنود إلى الشام أمر يزيد بن أبى سفيان . وعمرو بن
الغاص . وشرحبيل بن حسنة . ولما ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده
يودعهم حتى بلغ ثنية النوداع فقالوا : يا خليفة رسول الله ! تمشى ونحن ركبنا .
فقال : إني احتسبت خطاى هذه فى سبيل الله .

ثم جعل يوصيهم . فقال : أوصيكم بثقوى الله . أعزوا في سبيل الله .
فقاتلوا من كفر بالله فإن الله ناصر دينه . ولا تغلوا . ولا تغدروا ولا تجنبوا . ولا
تفسدوا في الأرض ، ولا تعصوا ما تؤمرون .

فإذا لقيتم العدو من المشركين - إن شاء الله - فادعوهم إلى ثلاث . فإن هم
أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم .

ادعوهم إلى الإسلام فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم .

ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . فإن هم فعلوا
فأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين . وعليهم ما على المهاجرين .

وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم
أنهم كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي فرض على المؤمنين وليس لهم
في الفقه والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين .

فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام فادعوهم إلى الجزية . فإن هم فعلوا
فاقبلوا منهم وكفوا عنهم وإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوا إن شاء الله .

ولا تفرق نخلا ولا تحرقها ولا تعفروا الهيمة ولا شجرة ثمر . ولا تهدموا بيعة
ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء . وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في
الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له .

وفي عهد عمر بن الخطاب أننا فتح فارس جاءت هذه القصة تحت عنوان :
دعوة سلمان الفارسي يوم القصر الأبيض ثلاثة أيام .

وأخرج أبو نعيم في الحلية (ج ١ ص ١٨٩) عن أبي التبخترى أن جيشا من
جيوش المسلمين كان أميرهم سلمان الفارسي رضي الله عنه فحاصروا قصرا من
قصور فارس فقالوا : يا أبا عبد الله ! ألا نهدي إليهم ؟ قال : دعوني لأدعوهم كما
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم .

فقال لهم : أنا رجل منكم فارسي . أترون العرب تطيعني فإن أسلمتم

فلکم مثل الذی لنا وعلیکم مثل الذی علینا ، وإن أبیتم إلا دینکم ترکناکم
علیه واعطیتمونا الجزیة عن ید وأنتم صاغرون . قال : ورَظَنَ إلیهم بالفارسیة
وأنتم غیر محمودین .

وإن أبیتم نابذناکم علی سواء . فقالوا : مانحن بالذی تؤمن ! وما نحن
بالذی نعطى الجزیة ! ولكننا نقاتلکم ! .

قالوا : یا أبا عبد الله ! ألا نهد إلیهم ؟ قال : لا ، فدعاهم ثلاثة أيام إلى
مثل هذا . ثم قال : انهدوا إلیهم فهدوا إلیهم . قال : ففتحوا ذلك الحصن .
وأخرجه أيضا أحمد في مسنده ، والحاكم في المستدرک كما فی نَصْب الرایة
(ج ٣ ص ٣٧٨) بمعناه . وفيه : فلما كان فی الیوم الرابع أمر الناس فهدوا إلیها
ففتحوها . وأخرجه ابن أبی شیبة كما فی الکنز (ج ٢ ص ٢٩٨) . وأخرجه
أيضا ابن جریر (ج ٤ ص ١٧٣) عن أبی التبختری قال : کان رائد المسلمین
سلیمان الفارسی ، وكان المسلمون قد جعلوه داعیة أهل فارس . قال عطیة : وقد
كانوا أمروه بدعاء أهل بَهْرَسِیر وأمروه یوم القصر الأبيض فدعاهم ثلاثا - فذكر
الحديث فی دعوة سلیمان رضی الله عنه بمعناه .

هذا . والروایات فی الدعوة إلى الإسلام قبل القتال مستفیضة أيام رسول
الله - صلى الله علیه وسلم - وأیام الصحابة رضی الله عنهم .

وغفلة نافع غفر الله لنا وله عن هذه الحقیقة لعلها كبوة الجواد .

واللام كله على من یتعصبون لخطئه ، ویتخاصمون الصواب بعد ماتین ..
ولا أدرى لحساب من ؟ ینشر بعض الجاهلین أن سید الدعاة یأخذ الناس
على غرة من غیر دعوة ولا بلاغ ، وأن الدعوة كانت فی مرحلة موقوته ثم
اختفت ؟؟

ما یبلغ الأعداء من جاهل ما یبلغ الجاهل من نفسه .. !

الكلمات الصادقة المضيئة تنبع من سرائر هادية زاكية ، وهي تُلمس أول ما تلمس في تراث الأنبياء ، ولم يبق موضع الثقة من هذا التراث الغالى إلا ما خلفه لنا محمد عليه الصلاة والسلام في كتابه ومسته ..

أما هذا القرآن فقد أعجب الإنس والجن أن يجيئوا بمثله ، ومنذ نزل إلى يوم الناس هذا ، إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات . وهو محفوظ بحفظ الله لا ترقى إليه ريبة . ولا يتوهم فيه تحريف ، ولا يستغنى طلاب الحق عن آياته البينات ...

وأما السنة فأوجز ما يقال فيها أنها « تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم » وقد أوتي محمد جوامع الكلم ، وانساب هداياته من ينبوع جياش بالرشد حافل بالخير ، وسبحان من أبدع محمدا !! إنه الإنسان الفذ الذى صان الإيمان مادة ومعنى ، وعاش به سيرة ودعوة ، وأقام على دعائمه مجتمعا ودولة . وأنشأ باسمه حضارة ترنو إليها المشارق والمغارب . ويرهب بأسها المعتدون والفوضيون ..

والثقافة الإسلامية قامت على الكتاب والسنة معا ، وقد يشتم الشياطين من تحريف الكتاب . فحاولت النيل من السنة ولكن العلماء النقدة صدّوا هذا الهجوم ، ومضوا بقافلة الإسلام مَنيعَة الجانب على حين طاشت رسالات ، وحالت رسوم .. !

ولا تزال - بفضل الله - نحرس الإسلام ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة ...

ولا أعرف أحدا من علماء الإسلام هوّن من مكانة السنة النبوية ، ولا أجاز أن يقول رسول الله كلمة ويمضى هو على خلافها . بل ذلك طريق الكفر ..

وما قد يقع بين العلماء من شجار فى القضايا الفرعية أساسه : أقال رسول الله هذا الحديث أم لا .. ؟

قد تقول : فقد رسا علم المصطلح ، وأتضحت منه أسس القبول والردّ بشئى المرويات .

ونقول : صدقت وذلك ما نريد تطبيقه لا غير !..

إننا نلتزم بما وضعه أئمتنا الأولون ، ولا نفكر فى البعد عنه ، كل ما لفتنا النظر إليه أن الشذوذ والعلل فى متون الأحاديث يتدخل فيها الفقهاء إلى جانب الحفاظ ، وقد تدخلوا فعلا فى الماضى ، وجدّ فى عصرنا ما يستدعى المزيد من البحث والاستقصاء ..

وأعرف أن البعض يوجس خيفة من هذا القول ولكن تجارى فى ميدان الدعوة تجعلنى أزيد الأمر تفصيلا .

فى أيام الهزائم الإسلامية التى نعانىها ، التى ألصقت بالإسلام ماشاء أعداؤه من نقائص ، سمعت خطيبا يروى هذا الحديث : « لا يسأل الرجل : فيم ضرب امرأته ؟ »

قلت له : إن ديننا متهم بأنه ضد حقوق الإنسان ، وضدّ كرامة المرأة خاصة ! فما حملك على إيراد حديث يفيد أن الرجل يضرب امرأته كيف يشاء لا يسأل عما بفعل ! وأنت تعلم أن هذا المعنى مرفوض فى الكتاب والسنة جميعا ؟

قال : إننى رويت حديثا صحيحا ، قلت له : ألا تحفظ حديث مسلم فى صحيحه « لتؤدّبنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يفاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » أف تكون الزوجة المضروبة أهون على الله من نعجة منطوحة ظلما ؟

قال : النساء منذ حواء إلى اليوم يستحقن الحذر والتأديب ، وقد جاء فى الحديث : « لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر » ! فقلت له : ما خانت حواء آدم ، ولا أغرته بالأكل من الشجرة ، هذا من أكاذيب التوراة ! .

والقرآن صريح وحاكم فى أن آدم هو الذى عصى ربّه ! ولكنكم دون

مستوى القرآن الكريم ، وتنقلون من المرويات ما يقف عقبة أمام سير الدعوة الإسلامية !.

لماذا لا يسأل الرجل : فيم ضرب امرأته ؟ أنربى بناتنا ليذهبن إلى فحل يلطمهن أو يؤذيهن دون مساءلة في الدنيا والآخرة ؟.

بأي منطق تتكلمون ؟ « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ذاك في الآخرة ، ومن حق المرأة في الدنيا أن تشكو ما نزل بها إلى أهلها ، أو الحكم الذي يمثلها أو القاضي الذي يجب أن يسأل زوجها !.

ولها بعدئذ أن تطلب الخلع أو تطلب التطلق للضرر ..

إنك أيها المتحدث باسم الإسلام تفتن الناس عنه بهذه الأحاديث .

وماكم موقفاً آخر من واعظ يحب الحكايات ويستنصت الناس بما نحوى من عجائب !.

قال : إن الدجال موجود الآن في إحدى الجزر ببحر الشام أو بحر اليمن ، مشدود الوثاق ، وقد رآه تميم الداري بعد ما غرقت السفينة التي كان يركبها هو وصحبه ، وتحادثوا معه ، وهو موشك على الخروج !.

وقد حدثت بذلك فاطمة بنت قيس في سياق طويل !.

قال لي طالب يسمع الدرس : هل يمكن أن نذهب في رحلة إلى هذه الجزيرة لنرى الدجال ؟ قلت له : وماذا تفعل برؤيته ؟ الدجالون كثيرون ، وإذا نحصنت بالحق نجوت منهم ومن كبيرهم عندما يخرج !.

قال : ألم يزر أحد هذه الجزيرة بعد تميم الداري ؟ فأثرت السكوت ، وصرفت الطالب عن الموضوع بلباقة ..

إن أساطيل الرومان والعرب والترك والصليبيين نجوب البحرين الأبيض والأحمر من بضعة عشر قرناً ولم تر هذه الجزيرة .

وفي عصرنا هذا طُرق كل شبر في البر والبحر ، والتقطت صور لأعماق المحيطات عن طريق الأقمار الصناعية ! فأين تقع هذه الجزيرة ؟ .

وأخيراً تذكرت كلمة عمر بن الخطاب وهو يردُّ حديث فاطمة بنت قيس في نفقة المطلقة ثلاثاً ، قال : لاندع كتاب ربنا وسنة نبينا لحديث امرأة لاندري حفظت أم نسيت ؟ .. قلت : ونحن لأنعُرض كتاب ربنا وسنة نبينا للتكذيب من أجل حديث السيدة نفسها ، في قضية أخرى ! .

يجب أن تسير قافلة الكتاب والسنة دون عائق ! .

و ثم أمر أخيراً ، لقد ثبت على وجه اليقين أن الجنين يتكوّن من حيوان منويّ وحيد يخترق بيضة - بويضة - المرأة ، هذا الحيوان الفذّ يسبق مئات الملايين من أمثاله تسبح في الماء الدافق .

وعندما يصل تبدأ المرحلة الأولى من الحياة الإنسانية .

وهو الذي تنشأ عنه الذكورة والأنوثة ، فليس لماء المرأة دخل في هذا بل قال العلماء ، إن الببل الذي يرطب الرحم عند الوقاع لا يسمى ماء إلا مجازاً ولا دخل له في التكوين .

وقد التقطت صور للحيوان المنوي الذي ينشئ الذكورة ، وللآخر الذي ينشئ الأنوثة ، كما أمكن في الأنابيب الجمع بين الحيوان المنوي والبيضة .

والمعروف أن القرآن الكريم سبق إلى تقرير هذه الحقيقة في قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » .

واليقين الثابت بالعلم وبالوحي لا يجوز أن يتقدم عليه ظنٌ علمي يرويه حديث آحاد ، يزعم فيه الراوي أن الأنوثة تنشأ من علو ماء الأنثى على ماء الرجل !! .

إن حديث الآحاد يتأخر حتماً أمام النصّ القرآني والحقيقة العلمية والواقع التاريخي ، أو يتأخر كما يقول المالكيون أمام عمل أهل المدينة ، وأمام القياس القطعي كما يقول الأحناف .

ذاك ما هديت إليه ، فإن كان حقاً فمن الله ، وإن كان خطأً فني واستغفر الله أولاً وآخراً .